إنكوبوس

Incubus

رواية

محمد رشاد عبده

اسم العمل: إنكوبوس Incubus

نوع العمل: رواية

الكاتب: محمد رشاد عبده

الناشر: دار المثقفين العرب

إهداء

إلى روح والدي تغمده الله تعالى برحمته..

إلى والدتي.. بارك الله في عمرها وبدنها..

إلى إخوتي وسندي.. غادة.. نادية.. عمرو..

إلى زوجتي أعزها الله وأكرمها بكرمه..

إلى ولدي مروان.. يا من لأجلك كتبت..

أهدي إليهم جميعاً هذا العمل..

–

أبو مروان المصري

إهداء خاص

إلى كلِّ من كان وقوفهم بجواري مداداً لقلمي كي يخط تلك الكلمات.. أهديكم جميعاً أوَّل أعمالي وكفى.. فلن أجد من الكلمات ما يوفيكم حقكم..

–

أبو مروان المصري

لا تقترب.. لا تدنُ.. لا تركل بقدمك ذلك الحجر..

لا تحاول إزاحة الستار عن ذلك الكـهف العتيق..

لا توقظ ذلك المسخ.. فقد ينــطلق إنكوبوس..

الفصل الأول

الهروب من المجهول

الهروب من المجهول

____

(1)

لم يعد لديه شك على الإطلاق أن تلك الذئاب الجائعة لن تكف عن مطاردته أبداً حتى تنال منه ليصبح فريستها الطازجة في تلك الليلة التي لا يبدو لها نهاية على الإطلاق..

لم يكن لديه خيار آخر سوى مواصلة الهرب.. لم يكن أمامه سوى أن يخلي السبيل لمكابح قدميه لينطلقا بأقصى ما لديهما من سرعة.. دون أن يعلم إلى أين؟..

الظلام دامس؛ والطريق الطويل الموحل لا يبدو له نهاية؛ وكأنه يدور في مسار دائري حول الكرة الأرضية؛ ولكن..

لم يكن له أي اختيار.. فإما مواصلة العدو بأقصى طاقة له؛ وإما السقوط بين مخالب وأنياب تلك الذئاب المفترسة.

وبرغم تلك الطريق الموحلة؛ والتي غاصت فيها قدماه؛ إلا أنه كان يسمع صوت خطواته المهرولة فوق الطريق كأنها طبول حرب تدق في أذنيه..

ارتفع صوت لهاثه ليغطي على صوت قدميه؛ بينما كانت حبات المطر الضخمة تنقره نقرات رتيبة فوق رأسه؛ ومن خلفه كان عواء الذئاب يدوي هادراً؛ لتشكل كل تلك الأصوات سيمفونية رعبٍ لا حدود لها..

لم يكن لديه وقت حتى لكي يتحسس تلك الجروح التي سبَّبَتْها له أشواك النباتات غريبة الشكل التي نمت على حافتي الطريق؛ لتطبق عليه من الجانبين وهو يمرق بينها؛ فكان يشعر بالدماء تسيل من كل أنحاء جسده ساخنة لزجة؛ مخلِّفة وراءها آلاماً لا تنتهي..

إنه لا يعرف أين هو.؟!

ولا يعرف حتى ما الذي أتى به إلى هنا.؟

ولا ماهية تلك الطريق التي يعدو فيها بأقصى سرعة يسمح بها قلبه الذي أنهكته سنوات عمره التي اقتربت حثيثاً من الخمسين؛ إنه الآن في انتظار تلك اللحظة التي سيعلن فيها قلبه العصيان ويكف عن النبض؛ ويسقط جثة هامدة؛ كطائرة توقف محركها فجأة فهوت فوق الأرض لتتحطم إلى ألف قطعة متناثرة..

وبالفعل بدأ في تلك اللحظة يشعر بهذا الألم المبرح في صدره وكتفه الأيسر.. إنها بوادر ذبحة صدرية لا محالة..

لقد حذره الطبيب كثيراً من بذل أي مجهود عنيف؛ وإلا فسيعرض نفسه لأزمة قلبية قد تودي بحياته تماماً؛ ولكن.. أين هذا الطبيب في

مثل هذا الطريق المفزع؛ لكي يريه كيف سينفذ تلك التعليمات في مثل هذا الموقف الرهيب؟..

بدأ الألم يتصاعد ليشمل صدره كله؛ ويصل إلى أطراف أصابع يده اليسرى؛ وبدأت أنفاسه تتحشرج؛ والعرق يتصبب مالحاً ليغطي وجهه رغم هذا المناخ شديد البرودة؛ وتلك الغشاوة التي تغطي مقلتيه؛ وتتصاعد تدريجاً حتى تكاد تفقده البصر..

أهذه هي النهاية.؟

أم ما زال هناك بقية.؟

وعلى حين غرة تبدلت حال الطريق..

إنه يرى الآن فرجة بين تلك الأغصان المتشابكة على بعد عدة أمتار فها هو يرى ضوء القمر الفضي ينفذ منها..

جاهد بشدة حتى وصل إلى تلك الفرجة بين الأغصان؛ ونفذ منها؛ ليجد نفسه وكأنه قد انتقل إلى عالم آخر؛ أو كوكب مختلف عمَّا كان عليه منذ لحظات..

لقد كانت هناك مساحة شاسعة من الأرض تمتد أمام بصره إلى ما لا نهاية؛ وكان ضوء القمر ينشر أشعته الفضية فوقها..

لا يعلم متى توقف هطول الأمطار؛ ولا متى بزغ ضوء القمر بعد أن كانت السماء ملبدة بالغيوم حتى صارت سوداء تماماً..

العجيب أيضاً أن أصوات عواء الذئاب قد توقف؛ فتوقف قليلاً ليلتقط أنفاسه الهاربة؛ بعدما اطمأن أن تلك الذئاب لم تعد تَجِد في طلبه.

أخذ يتلفت حوله فلم يرَ شيئاً إلا الخواء؛ ولم يسمع سوى صوت السكون التام؛ وتلك الأرض المترامية الأطراف – والتي كانت تربتها تميل إلى اللون الأحمر القاني وكأنها عجنت بدماء آلاف البشر – تحيط به من كل جانب..

أخذ يسير الهوينى على غير هدى؛ وفجأة.. لاح له هذا الضوء الضئيل المتراقص؛ والذي كان يظهر ويختفي وكأنه ضوء مشعل تحرك الرياح لهبه؛ فيعلو تارة؛ ويخفت تارة أخرى..

كان هذا الضوء يبعد عن مكانه قرابة مائتي متر أو يزيد..

أخذ يحدق فيه محاولاً أن يرى مصدره؛ فبدا له على ضوء القمر الشاحب ما يشبه الكوخ الخشبي الكبير؛ وهذا الضوء يخرج من نافذة صغيرة في أعلى الجدار المواجه له..

لم تكن الرؤية واضحة من تلك المسافة البعيدة؛ فبدا المشهد وكأنه سلويت لرسم خرافي لكوخ من عصور ما قبل التاريخ..

لقد رأى للحظات بعين خياله عشرات المسوخ خلف جدران هذا الكوخ يطهون أجساداً أدمية ليتناولوا عشاءهم؛ فمثل هذا الكوخ في مثل هذا

المكان لا يمكن أن يسكنه سوى المسوخ والأشباح؛ والتي تتغذى على لحوم البشر الذين ضلوا طريقهم مثله تماماً.

ولكن الغريب أنه وجد نفسه يسير في اتجاه هذا الكوخ؛ بدلاً من أن يفر في أي اتجاه آخر.. فلم يكن هناك مفر من أن يدع خياله جانباً وأن يصل إلى هذا الكوخ لعله يجد فيه من يدله على الطريق الصحيح.

أخذ يتقدم بخطواته المتهالكة تجاه هذا الضوء؛ ولكن العجيب أنه كلما تقدم أكثر ابتعد الضوء أكثر؛ حتى اختفى تماماً..

توقف مكانه؛ وأخذ يدور حول نفسه باحثاً عن مخرج مما هو فيه؛ وفجأة لاح الضوء له مرة أخرى ولكن كان أكثر قرباً منه؛ حتى بدأت ملامح الكوخ تظهر له أكثر وضوحاً.. أخذ يهرول في اتجاهه؛ ولكنه عاد ليبتعد ويبتعد حتى اختفى تماماً مرة أخرى..

التفت يميناً فوجد الضوء يلوح له من بعيد؛ ولكنه أمسى يأتي من جهة يمينه؛ بعدما كان في مواجهته؛ ثم عاد ليختفي مرة أخرى.

لقد كان يدرك الآن أنه يعيش أضغاث حلم مفزع.. كابوس مريع؛ ولكنه لا يعرف سبيلاً للخروج منه..

إنه يدرك هذا الشعور بالضياع التام الآن..

شعور الفأر داخل المتاهة..

هذا الفأر الذي يجد أمامه عشرات الطرق؛ ولكنه كلما سار في طريق تفرع به إلى آخر؛ دون أن يجد المخرج من تلك المتاهة..

أخذ يجاهد لكي يستيقظ ليخرج من هذا الكابوس المريع.. ولكن.. كيف.؟

إنه الآن في منطقة تقع ما بين الواقع والحلم.. ما بين اليقظة والمنام..

فهو يدرك تماماً أنه يعيش الحلم بكل تفاصيله؛ ولكنه في نفس الوقت لا يملك سبيلاً للخروج منه بالاستيقاظ الكامل.[1]

لم تكن تلك المرة الأولى التي يعيش فيها هذا الكابوس المفزع.. بل إنه على مدار سنواته الأخيرة عاش هذا الحلم عشرات المرات بكل تفاصيله الدقيقة دون زيادة أو نقصان؛ وكأنه يشاهد فيلماً للمرة المئة؛ وفي كل مرة كان يحاول الخروج من منتصف الحلم؛ ولكنه دائماً ما كان يفشل؛ فلابد أن ينتهي الحلم في كل مرة عند نفس المشهد..

---

[1] - **حقيقة.. وهي تعرف عند البعض بالجاثوم؛ وطبياً تعرف بـ (شلل النوم) وفيها يشعر الإنسان بأنه يدرك ما حوله؛ ويدرك تفاصيل الحلم ولكنه لا يملك القدرة على الاستيقاظ؛ والتخلص من هذا الكابوس.**

أخذ يدور حول نفسه باحثاً عن هذه البئر التي ينتهي عندها الحلم في كل مرة.. هل تأخر ظهوره هذه المرة.؟ أم أن هناك تغييراً ما في أحداث حلمه.؟!

وأخيراً بدَتْ له البئر غير بعيدة.. فها هو الكابوس المرعب يحتفظ بتفاصيله دائماً دونما تغيير.. لقد اقترب الحلم من نهايته إذن..

أخذ يجرجر أقدامه – والتي أصبحت وكأنها تزن أطناناً – في اتجاه البئر؛ وبرغم أنه يدرك أن ما سيراه الآن هو أبشع فقرات كابوسه هذا؛ إلا أنه كان متشوقاً إلى الخروج من هذا الفزع المستمر..

الآن هو يقف عند حافة البئر العميقة؛ وها هو ضوء القمر يحيل صفحة الماء داخله إلى مرآة مصقولة؛ وها هو يحدق في سطح الماء؛ ولكنه لا يرى انعكاساً لوجهه فوقه..

كان ما يطل عليه منه وجه آخر.. وجه مشوه تماماً بفعل تشوش الرؤية؛ ولكنه يستطيع أن يرى تلك الابتسامة الحزينة التي ارتسمت فوق شفاه هذا الوجه.

وفجأة.. تمتد تلك اليد المخلبية السوداء من قاع البئر لتمسك به من ملابسه محاولة سحبه إلى القاع.. وها هو يقاوم بعنف متمسكاً بحافة

البئر الصخرية؛ وهو يصرخ في فزع لعل صوت صراخه يخرجه من تلك الحالة التي هي ما بين اليقظة والنوم.

هل طال الكابوس هذه المرة.؟

لقد كان ينتهي دائماً عندما يرى صورة هذا الوجه المشوهة منعكسة على صفحة الماء.!

أفلت يده اليمنى التي كانت متشبثة بالحافة؛ وأخذ يلطم بها وجهه؛ ويضرب صدره لعله يستيقظ؛ بينما كانت صرخات الفزع لا تزال تنطلق من حنجرته..

ولكن اليد لم تفلته؛ وهو لم يستيقظ بعد.

رأى سطح الماء يعلو حتى كاد يقترب من الحافة تماماً؛ وها هي اليد المخلبية البشعة ما زالت تجذبه نحوها حتى لامس الماء وجهه؛ وشعر ببرودته تسري في جسده وكأنها خناجر من الثلج..

وهنا.. أفاق أخيراً من نومه المضطرب ليجد أن يد زوجته تصفعه على وجهه تارة؛ وتضرب صدره تارة أخرى؛ وتنضح وجهه بقطرات من الماء حتى يفيق..

لقد كان الكابوس أشد قسوة في هذه المرة حقاً؛ ولهذا فلقد اضطرت زوجته أن توقظه بتلك الطريقة العنيفة عندما شعرت به يجاهد للخروج من حلمه المريع..

انتفض جالساً في مكانه؛ وهو يشهق بقوة لالتقاط أنفاسه التي كادت أن تنقطع؛ وقد غمر العرق جسده كله حتى ابتلت ملابس نومه كلها؛ وكأنه كان تحت المطر فعلاً؛ أو أنه سقط في البئر..

***

(2)

عاد بظهره إلى الوراء؛ وناولته زوجته كوباً من الماء جرَعَه دفعة واحدة؛ فقد كان يشعر بظمأ شديد..

أخرج لفافة تبغٍ وأشعلها؛ وأخذ يمتص دخانها بشراهة رغم أن أنفاسه كانت لا تزال مضطربة؛ في حين ظلت زوجته تنظر إليه دون أن تنطق بكلمة؛ بينما كانت ملامحها تتقلب ما بين الخوف تارة؛ والغضب المكظوم تارة أخرى.

مدت يدها فأخرجت لفافة تبغٍ من علبة لفائفه؛ وأشعلتها بقداحته؛ وأراحت ظهرها إلى الوراء؛ وشرعت في تدخين اللفافة بطريقة تدل على حداثة عهدها في عالم أصحاب الرئات السوداء من المدخنين.

التفت إليها متعجباً وقال لها بصوته الذي كان لا يزال متهدجاً:

- منذ متى وأنتِ تدخنين يا *ليلى*.؟

أجابته بدون اكتراث؛ ودون حتى أن تلتفت إليه:

- ها أنا قد فعلت.. ثم منذ متى وأنت تهتم.؟!

أخذ ينظر إليها وقد علا وجهه الذهول من هذا التغير العجيب في سلوكها؛ فقد كانت تبغض رائحة التبغ؛ وتلومه كثيراً بسبب شراهته في التدخين.. ثم قال لها؛ وقد أغضبه ردها:

- ماذا تعنين.؟

ردت عليه باقتضاب:

- لا شيء..

لفهما الصمت لدقائق وهما يرتشفان دخان لفافتيهما دون أن ينظر أحدهما للآخر؛ حتى قطعت هي الصمت قائلة بصوت خفيض؛ دون أن تلتفت إليه:

- هل هو نفس الحلم يا *عمر*.؟

التف *عمر* بجسده إلى يساره؛ وأطفأ لفافة تبغه في المنفضة وأجابها بصوت منهك:

- نعم.. هو نفس الحلم ولكنه في هذه المرة كان أشد قسوة.. يبدو أن الأمر يتطور إلى الأسوأ بصورة ما..

نظرت إليه حانقة وقالت له:

- وهل ستظل على عنادك هذا ولن تذهب إلى الطبيب لكي يرى لك حلاً في أحلامك تلك؛ كما طلبت منك هذا مرات ومرات.؟

التفت إليها وقال لها بصوت مجهد:

- **هل سنعود إلى هذا الهراء مرة أخرى.؟! ألن تكفِّي عن حديثك هذا أبداً.؟!**
- **لا.. لن أكف عن طلبي هذا؛ ما دمت تصر على عنادك.. لقد صرت كالطفل الصغير الذي لا يعرف صالحه؛ ويحتاج دائماً إلى من يأخذ بيده إلى طريق الصواب..**

صاح بها غاضباً:

- **ومن قال لك: إنني مجنون لكي أذهب إلى طبيبٍ نفسي يظل يصب في أذنيّ تلك الكلمات الحمقاء عن الأنا والأنا العليا؛ والنفس والذات؛ والعقل الباطن والواعي؛ والهستيريا؛ والشيزوفرانيا؛ وكل تلك الترهات التي ما أنزل الله بها من سلطان..**

ردت عليه بغيظ:

- **ألا تخجل من نفسك وأنت تقول مثل هذا الكلام الساذج.؟! ماذا تركت للجهلاء إذن.! لا يصح أن يكون هناك رجل متعلم تعليماً عالياً مثلك ولا يزال لا يعرف الفرق ما بين الجنون؛ وبين المرض النفسي..**

أدار *عمر* وجهه؛ واضطجع ساحباً الأغطية الثقيلة فوق جسده؛ وهو يقول لها متثائباً:

- لقد تركت لك العلم والثقافة يا *ليلى*؛ فهلا كففتِ عن تلك المحاضرة التي مللت منها؛ واتركيني أنال قسطاً من الراحة فلديَّ الكثير من الأعمال في الصباح..

شدت الغطاء من فوق رأسه بغيظ وهي تصيح به:

- ألم أقل لك: إنَّك لم تعد تهتم بشيء.؟! حتى علاقتنا الزوجية – والتي أصبحت على الحافة – لم تعد تأبه إن استمرت؛ أو حتى انهارت فوق رؤوسنا..

التفت إليها *عمر* ونظر إليها نظرات تنطق بالحنق والملل؛ ثم قال لها وهو يضغط أسنانه غيظاً:

- وهل تظنين أن هذا الوقت مناسبٌ لمثل تلك الأحاديث.؟! ألا ترين أنى متعب؛ وأحتاج بشدة إلى بضع سويعات من النوم قبل السفر إلى بلدتي في الصباح.؟!

صاحت فيه غاضبة:

- هل ما زلت مصراً على بيع أرضك؛ وآخر ما تبقى لك من ميراث.؟ ألن تكف عن عنادك هذا أبداً.؟ لقد أصبح شيئاً لا يطاق حقاً.!

نظر إليها وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة؛ وقال له بلهجة حانقة:

- ولمَن أبقى عليها من وجهة نظرك.؟! فإن كانت هي آخر ما تبقى لي من إرث.! فلمن سأُورثها إذن وليس لدي وريث.؟

نظرت إليه نظرة تجمع ما بين الغضب والحزن؛ ثم غادرت الفراش دون أن تنطق بكلمة واحدة؛ وتركت له الغرفة وهي تغالب دموعها؛ وذهبت إلى غرفة أخرى لتختلي بنفسها؛ ولتطلق عقال دمعها الحزين..

اضطجع *عمر* مرة أخرى في فراشه؛ وأشعل لفافة تبغ أخرى أخذ يدخنها بعصبية..

كان يشعر بتأنيب الضمير.. إنه يعلم تماماً أن مثل تلك الكلمات التي تلمح إلى عدم قدرة *ليلى* على الحمل والإنجاب؛ تجعلها تشعر بالحزن والغضب في آن واحد؛ فتكف عن الحديث وتتركه مغادرة المكان الذي يكون فيه.. ولكنه كان يلجأ إلى تلك الحيلة أحياناً لكي يتخلص من إلحاحها في أي موضوع..

لقد كان يعلم تماماً أن زوجته تحبه كثيراً؛ رغم أن زواجهما كان عادياً ولم يكن باعثه الحب؛ ورغم هذا الفارق الكبير في العمر بينهما – والذي يصل إلى عشر سنوات كاملة – فهي كانت في الخامسة والثلاثين من العمر بينما هو تخطى الخامسة والأربعين بعدة شهور.. ولكنها رغم ذلك تحبه؛ وهو على يقين من ذلك..

ربما تكون قد تبدلت كثيراً بعدما تأكدت منذ سنوات أن حشاها غير قادر حمل بذرة طفلٍ؛ تسعد به؛ وتُسعِد به زوجها؛ فصارت شديدة

الحساسية تجاه أي حديث يشير إلى علتها؛ وتتأثر بشدة ربما لعدة أيام؛ هذا بخلاف أنها كانت دائماً تحمل هذا الشعور الأنثوي الذي يسيطر على عقول من كنَّ في مثل حالتها؛ بأنَّه لا بد أن يتزوج بأخرى؛ أو على الأقل فإنه لديه الكثيرات من العشيقات..

هو أيضاً ربما كان يحبها؛ ولكن بطريقته الخاصة؛ فهو ومنذ زمن بعيد كف عن التعبير عما يجيش في صدره من مشاعر حب تجاه الآخرين؛ ولكنه في النهاية لا يبغضها؛ فهي لم تكن زوجة سيئة؛ ولم تقصر يوماً في واجبتها تجاهه؛ ولهذا فهو لم يفكر يوماً في تركها؛ أو حتى الزواج من أخرى قد تنجب له طفلاً يحمل اسمه؛ ويرث ثروته..

ظل *عمر* مستيقظاً في فراشه لفترة طويلة؛ وقد جفاه النوم؛ حتى شعر بها تدخل الفراش في هدوء حتى لا توقظه لظنها أنه قد غرق في النعاس؛ وعندما شعر بها التفت إليها وربت على كتفها قائلاً له بود وكأنه يعتذر لها:

- **أعدك أن أذهب إلى الطبيب؛ ولكن بعدما أعود من بلدتي؛ وأنتهي من بعض تلك الأعمال الهامة..**

ثم عاد ليسحب الأغطية فوق رأسه؛ ليعاود النوم.. دون أن ترد عليه بكلمة واحدة..

الفصل الثاني

ذهاب بلا عودة..

ذهاب بلا عودة

---

(3)

كان الطريق أمامه مظلماً تماماً؛ ولا يشق عتمته إلا أضواء مصابيح سيارته التي كانت تنطلق مسرعة في طريقها للعودة إلى القاهرة..

نظر *عمر الشوباني* إلى ساعة يده فوجدها تشير إلى الواحدة والربع صباحاً..

لقد غادر بلدته في محافظة أسيوط منذ ما يقرب من الساعتين؛ وما زال أمامه ساعات أخرى قبل أن يصل إلى مشارف الجيزة..

أخذ يلوم نفسه بشدة لإصراره على السفر بالسيارة كل هذه المسافة الطويلة من القاهرة إلى أسيوط ثم العودة في نفس اليوم؛ وبرغم أن سيارته كانت حديثة وقوية؛ ويمكنها قطع مسافات طويلة دون كلل؛ وبسرعة كبيرة؛ إلا أنه كان يبغض قيادة السيارات عموماً؛ وفى كل مرة اضطر فيها للسفر إلى بلدته كان يستقل القطار؛ الذي كان يجد فيه الكثير من الراحة..

ولكنها الظروف، هي ما حتمت عليه السفر بالسيارة وعدم انتظار مواعيد القطارات؛ فلقد كان يتحتم عليه الوصول إلى بلدته قبل ظهر هذا اليوم ليتمم عملية بيع قطعة أرض كان قد ورثها عن والده؛ وحتماً كان سيعود حاملاً مبلغاً كبيراً من المال فخشي إن استقل القطار أن يتبعه لص ويسرق ماله..

كان من المفترض أن يبيت ليلته هذه في بلدته على أن يعود في الصباح؛ إلا أن شجاره مع أبناء عمومته جعله يصر على الرحيل في مثل تلك الساعة المتأخرة دون الانتظار حتى الصباح..

لقد كانت قطعة الأرض هذه هي آخر ما تبقى له من ميراثه عن أبيه؛ بعدما أضاع معظم ما تركه له الأب من أموال كثيرة؛ أنفق معظمها على لهوه ونزواته أيام شبابه الأولى حينما كان يحيا حياة ضائعة بلا هدف؛ وقبل أن يرجع عن طريق اللهو ويلتفت إلى حياته؛ ويبحث عن الاستقرار..

جز على أسنانه غيظاً عندما قفزت إلى ذهنه كلمات *علام الشوباني* أكبر أبناء عمومته سناً؛ ويُعَدُّ هو كبير العائلة الآن بعد رحيل كبار العائلة من الأعمام والأخوال..

لقد كان عنيفاً في توبيخه له بسبب إصراره على بيع أرضه؛ بدعوى أنها كانت هي آخر ما يربطه بعائلته؛ وبإصراره على بيعها فهو يجتث جذوره التي تربطه بمسقط رأس أبيه وأمه؛ اللذين رحلا عن الدنيا..

لقد لامه الجميع؛ وعنفوه كأنه طفل صغير لا يعي ما يفعل؛ وما أثار حنقه وغضبه أكثر وأكثر هو ما قاله ابن عمه هذا عن حياة الضياع التي كان يحييانها؛ والتي كانت تصله أخباره وأخبارها؛ مما كان يسبب لهم الحرج؛ والعار – على حد قوله – مما جعل *عمر* يثور ويسب ويلعن؛ ويصر على الرحيل في هذا الوقت المتأخر من الليل..

لم تكن حدته بسبب ما قيل عن ماضيه فحسب؛ ولكنه كان في قرار نفسه يشمئز ممَّن يدعي الفضيلة وهو غير أهلٍ لها..

لقد كان على يقين أن غضب أبناء عمومته؛ ورفضهم أن يبيع أرضه؛ لم يكن أبداً بسبب الروابط العائلية؛ ولا لأنه يحاول أن يجتث جذوره من أرض آبائه وأجداده كما يقولون؛ وإنما لأنه ببيعه لتلك الأرض فهم سوف يخسرون ما كان يعود عليهم منها؛ فلقد كانوا يستولون على ريعها؛ وما كان يناله منها إلا الفُتات؛ خاصة بعدما انشغل عن متابعتها بأعماله في القاهرة التي بدأت تزدهر وتنمو في السنوات الأخيرة؛ فلم يعد يهتم بما

يحصل عليه منها؛ ولهذا فقد قرر بيعها لكي يستغل ثمنها في توسيع أعماله؛ وهذا ما أغضبهم وليس لأنه يبتعد عن أهله؛ ولا لأنه يفك عرى العلاقات العائلية؛ التي وهنت وتضاءلت بعد أن رحل الكبار..

ورغم كل هذا فهو يعلم يقيناً أنهم بخسوه ثمنها؛ واشتروها هم بما يعادل نصف ثمنها تقريباً؛ ولكنه لم يهتم كثيراً؛ بل كان جل همه أن يحصل على المال الذي هو في كل الأحوال أفضل بكثير من ذلك الفتات الذي كانوا يلقون به إليه في نهاية كل عام..

أفاق *عمر* من أفكاره إثر رؤيته لهذا الضوء المبهر الذي أضاء الطريق أمامه لعدة لحظات؛ ثم اختفى ليتبعه هذا الصوت المفزع للرعد؛ ثم بدأت السماء تلقي بأحشائها فوق الطريق..

أمال رأسه للأمام ليرى السماء عبر واجهة السيارة الزجاجية؛ فوجدها سوداء معتمة؛ حبلى بكتل السحاب القاتم؛ فأدرك أنها لن تكون ليلة عادية أبداً..

مرت دقائق قليلة ثم بدأ يسمع تلك النقرات التي تحدثها حبات الثلج الصغيرة المتساقطة من السماء؛ والتي كانت تصطدم بزجاج السيارة فيصدر عنها ذلك الصوت الرتيب تك.. تك.. تك؛ ولم تعد مساحات

الزجاج قادرة على مواجهة تلك الأمطار الغزيرة المنهمرة من السماء التي كانت وكأنها قِرب ممتلئة بالماء؛ وقد فتحت فوهاتها فصارت تصب محتواها فوق الطريق الذي تحول في دقائق معدودة إلى بحيرة صغيرة ممتلئة بالماء والأوحال..

أخذت السيارة المسرعة تتراقص فوق الطريق وكأنها تسير فوق أرض مشبعة بالزيت؛ بعدما تحولت الأتربة فوق الطريق بفعل ماء الأمطار إلى أوحالٍ لزجةٍ كأنها رغوة صابون..

أبطأ من سرعة السيارة حتى يتمكن من التحكم فيها فوق هذا الطريق الذي صار شديد الخطورة؛ وقد يتعرض في أي لحظة لأن تنقلب السيارة رأساً على عقب..

كان الطريق خالياً تماماً من السيارات في مثل هذا الوقت من الليل؛ وهذا الطقس الذي يجعل من قيادة السيارات فيه مغامرة غير مأمونة العواقب..

كان نهر النيل عن يمينه يمتد موازياً للطريق؛ ولا يفصله عنه سوى سورٍ قصير من الأحجار؛ بينما في جهة اليسار؛ وعبر الطريق المقابل كانت هناك تُرعة عميقة؛ وعلى الجانب الآخر منها تمتد الزراعات بطول الطريق..

بدت له تلك الترعة بمياهها السوداء وكأنها وحش أسطوري يفتح فمه على اتساعه؛ منتظراً أن تزل إطارات سيارته فتسقط فيه فيبتلعها بلا رحمة..

جعله هذا الخاطر يشعر بالرعب أن تنفجر إحدى إطارات السيارة فتنزلق فوق هذا الطريق الزلق لتسقط في تلك الترعة أو تقفز من فوق ذلك السور الذي يفصله عن مياه النهر؛ وتكون النهاية الحتمية..

أخذ يلعن في سره حماقته التي جعلته يصر على الرحيل في مثل هذا التوقيت؛ رغم تحذيرات أقاربه له بأن الطقس غير مستقر وقد ينقلب فجأة – وهذا ما حدث فعلاً – إلا أنه لم يستمع إلا لصوت عناده الذي اشتهر به..

***

(4)

بدأ يشعر بالتعب؛ فقلبه المريض لم يعد مؤهلاً لاحتمال كل هذه الجرعة الزائدة من الانفعالات؛ والعصبية الزائدة؛ وكل هذه الساعات الطويلة من القيادة؛ خاصة في مثل هذا المناخ المرهق..

هذا بخلاف أنه لم ينل قدراً كافياً من النوم في الليلة السابقة؛ فبدأ يشعر بالخدر يسري في أطرافه؛ ورأسه الذي احتلته الآلام بدأ يصرخ مطالباً بقدح كبير من القهوة المركزة؛ حتى كاد يشم عبق القهوة لشدة شوقه إليها في تلك اللحظة؛ فكان القرار الحكيم الآن هو أن يتوقف عند أي استراحة أو مطعم من تلك المطاعم التي توجد عموما في مثل تلك الطرق السريعة..

ولكن أين مثل هذا المكان.؟!

ظل شاخصاً ببصره إلى الطريق عبر الضوء الصادر عن مصابيح سيارته لعله يجد مكاناً يصلح لكي يتناول فيه قدحاً من القهوة؛ وينال بعضاً من الراحة التي صارت ضرورة ملحة؛ وليست ترفاً.. ولكنه سار لعدة كيلو مترات أخرى ولم يرَ أي شيء يشير إلى وجود مثل هذا المكان..

أبطأ من سرعته أكثر لعله يجد حتى مكاناً يصلح لأن يوقف فيه السيارة ليستريح قليلاً ثم يواصل السير..

وفى تلك اللحظة؛ وفى الجانب الآخر من الترعة عن يساره؛ شاهد طريقاً جانبياً يتفرع من الطريق الطويل.. لا بد أنه مدخل لإحدى القرى التي تنتشر على الطريق السريع؛ وقد يكون هناك مقهى أو مطعم صغير يستضيف من تنقطع بهم السبل مثله الآن؛ فقرر أخيراً أن يجرب حظه.. ولن يخسر شيئاً إن لم يجد مطعماً أو حانة ما في هذا الطريق الجانبي فيكفيه أن يوقف السيارة قليلاً ليغلق عينيه وينال قسطاً من النوم لعله يستعيد بعض نشاطه والقدرة على القيادة؛ خاصة وأنه قد بدأ يلحظ بعض سيارات النقل الثقيل والتي تجر وراءها مقطورة كبيرة؛ وهو يعلم جيداً أن مثل تلك الناقلات لا تنشط إلا بعد منتصف الليل؛ وغالباً ما يكون قائدوها من مدمني المخدرات؛ الذين يرون أن تلك الطرق ملكية خاصة لسيارتهم فيسيرون فيها بسرعات كبيرة؛ ومن هنا تأتي الكوارث..

كان عليه أن يسير بسيارته عدة كيلو مترات أخرى لكي يصل إلى الملف لكي يدور بسيارته ويعود مرة أخرى إلى الطريق العكسي؛ ليمر من فوق هذا الجسر الصغير الذي يمر فوق الترعة – والذي لاحظه الآن – قبل أن يصل إلى مدخل تلك القرية..

كانت الأمطار لا زالت تهطل؛ والطريق شديدة العتمة؛ ولا يمكنه الرؤية إلا من خلال هذا الضوء القوي الصادر من مصابيح سيارته العالية ولكنه ما إن مر من فوق ذلك الجسر الإسمنتي الصغير حتى انطفأت المصابيح العالية وساد الظلام التام أمامه؛ فأضاء المصابيح الخافتة التي أرسلت ضوءاً أصفر باهتاً كان يرى فيه الطريق بصعوبة شديدة..

وما إن سار عدة أمتار أخرى حتى رأى ما جعله يصاب بالذهول..

لقد كانت هناك امرأة ما تقف على جانب ذلك الطريق غير الممهد والمؤدى إلى مدخل القرية..

هل ما رآه حقيقة.؟! أم أنه بدأ يُصاب بالهلوسة بسبب الإجهاد وقلة النوم.؟!

توقف بالسيارة على بعد عشرين متراً تقريباً؛ ونظر خلفه وأخذ يحدق في نفس المكان الذي ظن أن الفتاة كانت واقفة فيه فلم يستطع أن يرى شيئاً في هذا الظلام الحالك؛ فكاد يظن أنه كان واهماً لولا أن هناك سيارة مرت على الطريق الرئيسي في تلك اللحظة فاستطاع أن يراها للحظات على ضوء مصابيح هذه السيارة..

كانت لا تزال واقفة في مكانها مرتدية ذلك الزي التقليدي للنساء الريفيات؛ ذلك الجلباب الأسود الطويل؛ ويغطي رأسها شال أسود ينسدل على كتفيها ويغطي معظم وجهها؛ فلم يستطع أن يتبين

ملامحها خاصة من تلك المسافة؛ ومن خلال هذا الضوء الخاطف؛ فلم يقدر أن يحدد كنهها..

هل هي امرأة مسنة؛ أم فتاة شابة.؟ أو حتى ربما كانت رجلاً متنكراً في زي امرأة لغرض ما في نفسه.؟

ولكن.. ما الذي يدعو إنسان ما أن يقف في مثل هذا المكان الموحش؛ في مثل هذا التوقيت؛ وهذا الطقس المرعب.؟! فما بالك إن كانت امرأة.؟!

هل تقف مثلاً في انتظار سيارة ما تمر من هنا لكي تقلها في طريقها إلى داخل القرية.؟!

فلماذا إذن لم تشر إليه لكي يفعل ذلك.؟! بل إنها حتى لم تلتفت إلى سيارته عندما مر أمامها وتوقف على بعد عدة أمتار منها؛ فعندما رآها للحظات خاطفة في ضوء السيارة التي مرت كانت تنظر أمامها مباشرة؛ ولم توجه بصرها تجاه مكان وقوفه؛ وكأنها لم ترَ السيارة من الأساس.؟!

كانت كل تلك الأسئلة تدور في ذهنه وهو واقف في مكانه لا يدري ماذا يفعل الآن.! هل يرتد قليلاً إلى الخلف ليعرض عليها أن يوصلها أينما أرادت.؟ فليس من الشهامة أن يتركها ها هنا دون أن يعرض عليها خدماته..

ولكن ماذا لو كانت تنتظر أحداً بعينه لكي يقلها إلى وجهتها.؟ فلربما أحرجته برد لاذع.!

وماذا لو كانت قاطع طريق يتخفى في ثياب امرأة ولن ينال في تلك الحالة إلا طعنة غادرة تقضي عليه؛ أو على الأقل يلقي به فوق الطريق ويسرق سيارته وحقيبة أمواله.؟!

لم يخرجه من حيرته تلك سوى أنه وجد نفسه يرتد على أعقابه إلى حيث تقف تلك المرأة؛ ويفتح النافذة عن يمينه؛ فنفذ منه تيار هواء شديد البرودة محملاً برذاذ المطر؛ فشعر برعدة قوية تسري في جسده..

مال بجسده قليلا حتى يرى ذلك الكائن الواقف بجوار السيارة ثم رفع صوته قائلاً:

- هل تحتاجين مساعدة.؟

لم تجبه بشيء؛ بل حتى إنها لم توجه بصرها تجاهه؛ وظلت صامتة لعدة ثوانٍ؛ ثم فجأة فتحت الباب ودلفت إلى داخل السيارة دون أن تنطق بكلمة واحدة..

أخذ ينظر إليها متعجباً من تصرفها؛ ولكنه لم يتبين لها أي ملامح؛ فلقد حرصت على أن تخفي نصف وجهها الذي كان في جهته بشالها الأسود..

طلب منها أن تغلق النافذة بجوارها فاستجابت دون رد؛ ثم ضغط زر المصباح الداخلي للسيارة لعله يرى ملامحها فيعرف كينونتها؛ ولكن المصباح أبى أن يطلق ضوءه الضعيف هو الآخر..

أخذ يلعن في سره تلك المصابيح التي قررت أن تتوقف عن العمل في تلك الليلة بالذات دون سببٍ.. لقد فحص سيارته جيداً قبل أن يقدم على السفر بها في تلك الرحلة الطويلة؛ ولكن يبدو أنها اتفقت مع تلك المرأة التي تجلس بجواره داخل السيارة على أن يمنعاه من رؤية وجهها..

بدأ يتحرك بالسيارة فسألها قائلاً:

- إلى أين تريدين أن أذهب بكِ.؟

أشارت بيدها إلى الطريق الجانبي الممتد أماهما؛ ثم مالت بكفها مشيرة إلى ذلك الممر جهة اليمين؛ والذي يبعد عن مكانهما قرابة مائتي متر.. ثم أخيراً نطقت قائلة دون أن تنظر إليه:

- (عزبة أبو مندور) أنا ذاهبة إلى هناك..

قالت جملتها ثم عادت لصمتها مرة أخرى؛ بينما انتظر *عمر* أن تنطق بأي شيء آخر إلا أنها لم تزد حرفاً واحداً؛ فشعر بالغيظ من سلوكها الفج؛ ولكنه قال لنفسه – يكفي أنني تيقنت الآن أنها امرأة؛ وليست قاطع طريق متنكراً..

ولكنه لم يستطع أن يستشف شيئاً من صوتها؛ فلقد كانت نبرتها محايدة تماماً لا تحمل أي رنة توحي له بأي شيء..

عاد يحاول أن يحثها على الكلام فسألها قائلاً:

- **هل أكون متطفلاً لو سألتك عن سبب تواجدك في مثل هذا المكان في تلك الساعة من الليل.؟**

ردت عليه رداً مقتضباً:

- **كل منا لديه أسبابه..**

أدرك من ردها المقتضب أنها لا تريد الحديث؛ ولكنه أيضاً كان يريد أن يشبع فضوله الذي أثارته تلك المرأة؛ أو تلك الفتاة – كما بدا له من صوتها – ولهذا فقد عاد ليتكلم محاولاً فتح مجالاً للحوار:

- **لقد كنت عائداً من بلدتي في أسيوط متوجهاً إلى القاهرة؛ ولكن هذا الطقس السيء فاجأني؛ وكنت أبحث عن مكان ما أستريح فيه لساعةٍ أو ساعتين؛ وأتناول قدحاً من القهوة قبل أن أواصل رحلة العودة؛ وبما أنك – كما بدا لي – من سكان تلك المنطقة؛ فهل من الممكن أن أجد مثل هذا المكان هنا.؟!**

- **ربما..**

لم تنطق بغير تلك الكلمة؛ فشعر باليأس من قدرته على حملها للكلام فآثر الصمت؛ وإن ظل بداخله غير مستريح لتلك الفتاة الصامتة؛ ولا لسلوكها العجيب معه..

كان قد اقترب من ذلك الطريق الجانبي الذي أشارت إليه الفتاة؛ وكان ضيقاً غير ممهد اتسع لسيارته بالكاد؛ وعلى جانبيه حقلان ينخفضان عن الطريق بما يزيد عن المترين؛ ولم يكن بهما أي زراعات؛ فلم يكن يغطيهما سوى تلك النباتات التي تنمو بشكل تلقائي في الأراضي المهجورة؛ مثل بعض شجيرات الأشواك؛ ونبات ذيل القط الذي نما على حافتي الحقلين بسيقانه الرفيعة الطويلة التي ارتفعت عن الأرض بما يقرب المترين ارتفاعاً؛ ليشكل ما يشبه السور على الجانبين..

لفت نظره تلك اللافتة المعدنية القديمة الصدئة؛ والتي غرست على جانب هذا المدخل ومكتوب فوقها (عزبة أبو مندور)..

لا يدري لماذا راوده ذلك الشعور الغريب أنه قد رأى هذا المكان وتلك اللافتة من قبل؟.!

لقد ألحَّ عليه هذا الشعور في نفس تلك اللحظة التي انحرف فيها يميناً ليسير في ذلك الطريق المؤدي إلى تلك العزبة..

سار في هذا الطريق المظلم ما يقرب من مئة متر دون أن يلوح له أي مظهرٍ من مظاهر الحياة؛ أو ما يشير إلى أن هذه المنطقة يوجد

بها قرية يسكنها أي بشر؛ فلم يكن هناك سوى هذين الحقلين المهجورين يحفان به من الجانبين؛ وبالطبع لم يكن يستطيع أن يرى أمامه أكثر من ثلاثة أمتار على الأكثر بسبب هذا الضباب الذي لم تستطع مصابيح السيارة الضعيفة اختراقه..

أوقف السيارة فجأة عندما طلبت منه الفتاة ذلك بصوت وكأنه أمر لا بد أن يطاع؛ وبكل هدوء فتحت الباب المجاور لها ثم هبطت من السيارة.. وقبل أن تعيد إغلاق الباب أشارت له على الطريق أمامه قائلة:

- على بعد عشرين متراً تقريباً من هنا ستجد ما تبحث عنه..

ثم أغلقت الباب قبل أن ينطق بكلمة واحدة؛ وانحرفت يميناً في طريق فرعيٍّ آخر أضيق بكثير مما كان يسيران فيه منذ لحظات؛ فما كان ليتسع لشخصين يسيران بجوار بعضهما البعض..

ظل ينظر إليها فاغراً فاه تعجباً حتى ابتلعها الظلام تماماً ولم يعد يرى لها أي أثر..

هم أن ينزل خلفها ويلحق بها لكي يعرف من تكون تلك الفتاة العجيبة التي تسير بمفردها في مثل هذا الطريق الذي لو قتلت فيه سرية من سرايا الجيش ما كان ليشعر بهم أحد؛ ولكنه كان قد بدأ

يشعر بالانقباض؛ واعتراه قلقٌ مبهمٌ تجاه تلك الفتاة التي لم تنطق إلَّا بعدد من الكلمات لا تتعدى عدد أصابع كفيه..

والأعجب أنها لم تنظر في وجهه مرة واحدة طوال مرافقتها له؛ سوى تلك اللحظة التي مالت برأسها لتخبره عن المكان الذي سيقضى فيه الدقائق القادمة؛ ولم يرَ من وجهها سوى عينيها اللتين لمحهما بالكاد؛ ولكنهما انطبعتا في ذهنه تماماً.. فلقد شعر للمرة الثانية أنها لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها تلكما العينين..

الفصل الثالث

مكان دافئ.. ولكن

---

(5)

ظل *عمر* في مكانه داخل سيارته؛ وهو ينظر في هذا الاتجاه الذي اختفت فيه الفتاة التي رحلت تاركة له أكداساً من التوتر والقلق.. فهو ما زال يراوده نفس الشعور بانه قد رأى هذه الفتاة من قبل..

لقد قرأ ذات مرة أن الإنسان قد ينسى الملامح ولكن نظرة العين من الصعب نسيانها؛ وأن لكل عين بصمة تشبه بصمات الأصابع لا تتشابه..

أخذ يحدق من خلال زجاج سيارته الأمامي في الاتجاه الذي أشارت إليه الفتاة وقالت له: إنه سيجد فيه ما يبحث عنه؛ ولكنه لم يستطع أن يرى شيئاً..

وفجأة.. سطع ضوء قوي أضاء الطريق أمامه.. لقد عادت مصابيح السيارة العالية تعمل..

ابتسم *عمر* ابتسامة لا مبالاة وهو يقول لنفسه:

- لقد كنت على يقين تام أن هذه الليلة ليست كأي ليلة أخرى..

مد يده وأضاء المصباح الداخلي وهو على يقين من أنه سيجده يعمل ولم يمسسه سوء؛ وبالفعل أطلق المصباح ضوءه الخافت.. إذن فلم يكن توقف المصابيح عن العمل نتيجة عطب ما قد أصابها.. لقد كانت هناك أسبابٌ أخرى حتماً.. ولكنه لا يعرفها؛ وإن كان يدرك تماماً أنها أسبابٌ غير طبيعية.. بل غير بشرية إن كنا نبحث عن الحقيقة..

عاد يحدق في الفراغ أمامه مرة أخرى؛ ولكنه هذه المرة استطاع أن يري ذلك الضوء الضعيف القادم من مكان ما.. لا بد وأنه صادرٌ من ذلك المكان الذي ذكرته تلك الفتاة..

تقدم بسيارته إلى حيث ذلك الضوء؛ وكان كلما تقدم خطوة بدت الصورة أكثر وضوحاً أمامه..

لقد أصبح الآن على يقين من أن تلك الليلة بالكثير من تفاصيلها قد مرت عليه من قبل.. بل إنه يستطيع أن يقسم أن الكثير من التفاصيل التي مرت به الليلة كانت تزوره ليلاً في كوابيسه التي أرقته؛ وأفسدت عليه حياته خلال السنوات الأخيرة..

فها هي الأمطار الرعدية كما رآها تماماً في كوابيسه؛ وتلك الأوحال؛ وهذه النباتات الشيطانية التي تنمو على جانبي هذا الطريق الذي كان يرى شبيهه في الكابوس؛ وتمت الصورة بذلك

البناء الذي لاح له الآن؛ وهذا الضوء الضعيف الذي لا بد أنه صادرٌ من إحدى نوافذه..

لقد كان يشبه تماماً ما رآه في كابوسه..

فكر في أن يعود أدراجه لمواصلة رحلته إلى القاهرة؛ ويكتفي من الغنيمة بالإياب؛ ولتذهب الراحة والقهوة إلى الجحيم؛ ولكنه كان قد وصل فعلاً أمام بوابة ذلك البناء؛ فلم يعد هناك سبيل للتراجع الآن بعد أن بدأ يشعر أنه لن يستطيع القيادة لمسافة كيلو متر واحد بعد الآن..

لم يكن *عمر* ذات يوم من هؤلاء الذين ترتعد فرائصهم عندما يصادفون أحداثاً مثل التي مر بها في هذه الليلة؛ بل كان يتفاخر دائماً أمام الجميع برباطة جأشه؛ وقوة أعصابه في مواجهة أصعب المواقف التي تصادفه..

ولهذا فقد قرر أن يدخل وليحدث ما يحدث بعد ذلك؛ خاصة وأن هذا البناء كان يقف أمامه تكسوه البراءة الكاملة؛ ولم يصك سمعه أصوات صادرة من الداخل لأناسٍ يصرخون ويطلبون الرحمة ممن يقرضون أطرافهم بمقارض من حديد؛ ولم يشم رائحة شواء لحوم أطفال؛ ولا قرعات كؤوس مترعة بدماء العذارى تثمل بها تلك الكائنات الشيطانية التي تخيل وجودها في مثل هذا المكان..

أوقف محرك سيارته؛ وتناول حقيبته الجلدية التي كانت تحوي ثمن بيع أرضه؛ وصورة من عقد البيع؛ فقد خشي أن يتركها بالسيارة فيأتي من يكسر الزجاج ويسرقها وهو بالداخل..

كان المكان عبارة عن بناءٍ من طابق واحد مبني بالحجر الأبيض الذي استحال لونه إلى الرمادي المتسخ بفعل تقلبات المناخ والقِدم؛ وكانت بوابته الخشبية مغلقة ربما اتقاءً لتلك الرياح الباردة في الخارج..

رفع بصره عالياً ليرى تلك اللافتة الخشبية القديمة؛ والتي تساقطت حروف الكتابة فوقها؛ ولكنه استطاع أن يقرأ عبارة (استراحة البئر السوداء)..

ابتسم في عصبية وهو يقول لنفسه.. كنت تبحث عن البئر؛ فأتتك ها هنا على شكل استراحة تفتح لك أبوابها لكي تبتلعك..

ورغم تعجبه لتلك المصادفات التي يصعب أن تجتمع كلها في وقت واحد؛ ورغم اندهاشه أن يكون في مثل هذا المكان؛ وعلى هذا البعد عن الطريق الرئيسي مثل تلك الاستراحة التي من المفترض أن يردها المسافرون عبر الطريق السريع.. إلا أنه تقدم من الباب الخشبي وطرقه بقوة حتى يسمعه مَن بالداخل؛

فوجد أن الباب ليس موصداً؛ وسمع صوتاً من الداخل يدعوه للدخول..

دفع الباب الخشبي فقابلته دفعة من الهواء الساخن أشعرته بالدفء الذي سرى في أوصاله المقرورة؛ فدخل مسرعاً وأغلق الباب خلفه لكيلا تتسرب برودة الطقس إلى الداخل..

كانت الاستراحة صغيرة نوعاً ما.. ذات طابع ريفي بموائدها الخشبية ومقاعدها المصنوعة من الخيزران؛ فلم تكن في النهاية إلا مقهى ريفي؛ وإن كان يزيد عليه تقديم بعض المأكولات السريعة؛ وبعض المشروبات غير البريئة؛ كما بدا له من تلك المعدات التي رآها في نهاية الرواق الطويل خلف الحاجز الخشبي الذي يشبه البارات في المطاعم والحانات..

كانت الإضاءة ضعيفة فيبدو أن الكهرباء كانت معطلة بسبب تلك الأمطار الرعدية؛ ولم يكن هناك سوى عدة مصابيح تضاء بالكيروسين هي التي تنير المكان الذي كان شبه خالٍ؛ فلم يكن هناك غير رجلين يجلسان في صدر القاعة المواجه للبوابة الخشبية بجوار ذلك الحاجز الذي يحمل معدات المقهى..

كان أحدهما في الخمسين من عمره تقريباً.. ضخم الجثة.. خشن الملامح.. يرتدى جلباباً بلدياً؛ ويلف رأسه بشالٍ حريري متعدد

الألوان.. وكان يدخن النرجيلة التي تصاعد منها دخان لم تخطئ أنف *عمر* الحساس رائحته؛ لقد كان يدخن الحشيش بلا شك..

أما الآخر فكان شاباً نحيفاً إلى حد كبير وإن كان بادي القوة رغم نحافته.. يحمل وجهاً كئيباً وعينين دائمي الحركة تدوران في محجريهما وكأن هناك مَن يطارده.. مرتدياً سروالاً أسودَ مجعداً؛ وقميصاً لا لون له يبدو أنه لم تمسه المكواة منذ اليوم الأول له على جسده..

كان هو الآخر ممسكاً بنرجيلة يمتص رحيق المخدر من بوصتها المسودة..

ومن هذا المشهد؛ وتلك الرائحة أدرك سبب وجود هذا المقهى بعيداً عن الطريق الرئيسي.. فكما يبدو أنه ملتقى سائقي الشاحنات الضخمة – كالتي تقف في الخارج على الجانب المواجه لهذا المقهى – لكي يتناولوا مشروباً ساخناً؛ وتدخين بعض المخدرات قبل الانطلاق في طريقهم؛ ويبدو أن هذين الجالسين أمامه هما سائقها ومساعده كما بدا له من هيئتهما..

كانا منهمكين في حديث ما توقفا عنه عندما دخل *عمر* من الباب؛ فرفعا بصريهما إليه يتأملانه باندهاشٍ بجسده الفارع هذا ووجهه الذي ما زال يحمل رونق الشباب رغم تخطيه منتصف

الأربعين من عمره؛ وتلك الحُلة الأنيقة؛ وربطة العنق الحريرية والحقيبة الجلدية الفاخرة التي بين أصابع كفه اليسرى..

كان واضحاً من نظراتهما إليه أنهما تعجَّبا من وجود شخص في مثل هيئته تلك داخل هذا المكان المتواضع..

لم يرتح *عمر* أبداً لنظراتهما الفاحصة له.. خاصة نظرات هذا النحيف الذي كان ينقل بصره بين وجهه تارة وبين الحقيبة التي في يده تارة أخرى.. ولكن لم يعد هناك سبيل للتراجع الآن خاصة بعد أن سرى دفء المكان في جسده؛ فذكره بالنعاس الذي يشتاق إليه الآن..

***

(6)

تلفت *عمر* حوله ومسح المكان كله بعينيه؛ ثم اختار مائدة في الركن الذي يجاور المدخل؛ وجلس واضعاً الحقيبة التي تحوي المال فوق فخذيه؛ وكأنه يخشى أن يخطفها أحد من بين أصابعه..

التفت تجاه هذين الرجلين؛ فوجدهما ينظران إليه بنظرات متفحصة فتساءل قائلاً:

- ألا يوجد أحد للخدمة هنا.؟

لم يتلق جواباً.. ولكن الرجل الضخم الجثة – والذي يبدو كالغوريلا بهذا الوجه الضخم غير الحليق – التفت تجاه بابٍ في الخلف وصاح بصوتٍ أجش وبلكنة أهل الجنوب:

- يا *كارم*.. تعالى هنا لترى ماذا يريد الباشا؟..

ثم بصق فوق الأرض المغطاة بطبقة إسمنتية بطريقة سوقية؛ ثم عاد ليكمل حواره مع رفيقه؛ والذي انقطع حال دخول *عمر* إلى المكان بينما كان رفيقه النحيف قوي العضلات لا يزال يراقبه بطريقة مستفزة ويفحصه من رأسه إلى أخمص قدميه؛ مما أثار قلقه وهواجسه..

مرت دقيقتان على الأقل قبل أن يظهر هذا الذي ناداه ذلك الضخم باسم *كارم*..

كان شاباً في منتصف العقد الرابع من العمر تقريباً.. قصير القامة.. له رأس ضخم يعلوه لبدة من الشعر المجعد.. له نظرات تقطر خبثاً وعلى شفتيه ابتسامة صفراء لزجة..

اندهش *عمر* أن يجمع مكان واحد كل تلك الوجوه المثيرة للريبة خاصة في مثل هذه المنطقة؛ وهذا التوقيت..

تقدم منه هذا الـ *كارم* وانحنى بالقرب من وجهه؛ فاشتم *عمر* رائحة كريهة تنبعث من ملابسه؛ وكأنه لم يخلعها من فوق جسده منذ أسابيع..

اتسعت ابتسامته اللزجة ليُظهر تلك الأسنان السوداء بفعل الدخان والتي نخر السوس معظمها؛ وعندما تحدث انبعثت من فمه رائحة خمرٍ رخيصة؛ يبدو أنه كان يعب منها داخل تلك الغرفة التي خرج منها عندما ناداه الآخر ضخم الجثة..

أخذ يرحب به بطريقة مبالغ فيها؛ وهو يتفحصه جيداً ويطيل النظر إلى تلك الحقيبة التي وضعها *عمر* فوق فخذيه؛ فوضع ساعديه فوقها وكأنه يتشبث بها كرد فعلٍ تلقائي لتلك النظرات الشرهة..

سأله *كارم* قائلاً:

- بماذا تأمر يا سعادة البيك.؟ لدينا هنا جميع المشروبات الساخنة والباردة..

ثم مال عليه أكثر وخفض من صوته قائلاً بخبث وهو يغمز بعينه:

- ولدينا أيضاً بعض المشروبات الخاصة إن كان لديك رغبة..

أبعد *عمر* وجهه قليلاً محاولاً تفادي تلك الروائح الكريهة المنبعثة من ملابسه ومن فمه ثم أجابه باقتضاب:

- لا أريد أكثر من قدح مزدوج من القهوة المركزة؛ ولا شيء آخر..

شعر *كارم* بالإحباط؛ فقد كان يمنِّي نفسه بنفحة طيبة من هذا الرجل الذي تبدو عليه مظاهر النعمة جلية؛ ولذلك فقد عاد يقول له وبإلحاح مقيت:

- لدينا أيضاً طعام جيد؛ وفطائر طازجة؛ هل آتيك ببعض الفطائر والعسل.؟

أخرج *عمر* علبة لفائف تبغه الذهبية من جيبه؛ وتناول منها لفافة أشعلها؛ ثم نظر إليه نظرة زادت من إحباطه ونفث دخان سيجارته بالقرب من وجهه الدميم وقال له بصوت قاطع:

- لا أريد أكثر من قدح القهوة المزدوج؛ وأرجو أن تسرع في إحضارها..

انسحب *كارم* من أمامه وهو يلقي عليه نظرة حانقة في ذات الوقت الذي احتفظ فيه بابتسامته اللزجة – التي يبدو أنها قد التصقت بوجهه من كثرة استخدامه لها عندما يتملق زبائنه – وعندما اقترب من ذلك النحيف أشار له فمال عليه وتهامسا وهما ينظران إليه؛ ثم نهض النحيف وسار مع *كارم* في اتجاه الغرفة الخلفية؛ والتي يبدو أنها غرفة إعداد الأطعمة والمشروبات..

لم يهتم *عمر* كثيراً وأخذ يدخن لفافة تبغه وقد بدأ يشعر بالخدر يسري في جسده.. ربما كان بسبب الجهد الذي بذله طوال اليوم؛ وربما كان بسبب هذا الدخان الذي عبأ القاعة؛ والمتصاعد من حرق المخدر فوق أحجار النرجيلة..

أطفأ لفافته؛ ورجع برأسه إلى الخلف؛ وقد بدأ يشعر بالنعاس يداعب أجفانه رغم مقاومته له؛ ولكن سرعان ما أتاه *كارم* بقدح القهوة ثم انصرف؛ فأخذ يرشف القهوة بشراهة؛ وهو لا زال يتابع عامل القهوة وذلك التابع النحيف وهما يقفان في مدخل الغرفة؛ وقد انضم إليهما رجلٌ ثالثٌ يبدو أنه يعمل في نفس المقهى؛ ووقف ثلاثتهم يتحدثون بصوت هامس لم يسمع منه حرفاً واحداً..

أنهى قدح القهوة؛ ولكنه كان لا يزال يشعر بالنعاس؛ فأدرك أنه لو حاول قيادة سيارته وهو على تلك الحالة فلا بد؛ أن يقع ما لا يحمد عقباه.. ففكر أن يغمض عينيه بعض الوقت لعله يفيق ويستعيد بعضاً من نشاطه؛ وبالفعل أغمضهما؛ واستسلم لهذا الخدر اللذيذ الذي دغدغ حواسه..

كاد أن يغرق في النوم لولا أن انتبه على صوت طرقات خفيفة فوق المائدة التي كان يجلس خلفها؛ ففتح عينيه سريعاً ونظر إلى هذا الذي طرق المائدة؛ فوجدها تقف أمامه وهي تنظر إليه تارة وتتلفت حولها تارة أخرى وكأنه تخشى أن يراها أحد واقفة معه..

نعم.. لقد كانت هي نفس الفتاة التي أقلها من الطريق الجانبي حتى هبطت من سيارته على مسافة قريبة من هذا المقهى..

فرك عينيه ليتيقن أنه لم ينم بعد؛ وأن تلك الفتاة تقف أمامه في الحقيقة وليست كابوساً آخر مما يراها كثيراً في الأيام الأخيرة؛ ولكنه كان متيقظاً تماماً؛ وكانت الفتاة تقف حقاً أمامه؛ وهي تشير له تجاه باب المقهى وتقول له بصوت حازم:

- اخرج.. اخرج من هنا حالاً ولا تبقَ لدقيقة واحدة أخرى..

أجفل *عمر* عندما حدثته الفتاة بهذه الطريقة فصاح بها:

- من أنت.؟ وماذا تريدين.؟

نظرت إليه الفتاة نظرة ملؤها الحزن واللوم وقالت له بصوتٍ يقطر حزناً:

- يبدو أنك لا تعرفني؛ وربما لن تعرفني أبداً..

ثم قامت بحركة عجيبة؛ فقد وضعت يدها في فتحة صدرها وأخرجت منه مظروفاً بدا عليه القدم؛ وقد اصفر غلافه المجعد؛ وألقت هذا المظروف الصغير أمامه؛ وأسرعت تجاه الباب وفتحته وخرجت منه ثم أغلقته خلفها..

بقي في مكانه للحظات وقد أصابته المفاجأة بالشلل فلم يقو على الحركة..

إنها نفس الفتاة فعلاً؛ ولكن.. ما الذي أتى بها إلى هنا.؟

وكيف دخلت دون أن يشعر بها.؟

فلو كان الباب انفتح لسمع صوته؛ أو على الأقل كان سيشعر بلفحة الهواء البارد التي ستندفع منه إن فُتح.!

ثم من تكون تلك الفتاة التي يراها للمرة الثانية خلال الساعة الأخيرة؛ وفي موقفين أشد عجباً من بعضهما البعض.؟

ولماذا تأمره بالخروج حالاً من هنا وكأن هناك كارثة ما ستحدث في التو واللحظة.؟

وما قصة هذا المظروف القديم.؟

لقد استطاع أن يتحقق من ملامحها الآن في هذا الضوء..

لقد كانت فتاة لا تتخطى الثامنة عشرة من عمرها؛ مليحة الوجه؛ وإن كانت بشرتها شاحبة؛ وفي عينيها يكمن حزن عميق؛ وبرغم أنها كانت تأمره بالخروج بكلمات قوية حازمة؛ إلا أنه شعر وكأنها أمٌّ تأمر ابنها لكي تبعده عن خطر تراه ببصيرتها ولا يراه هو..

نظر إلى المظروف الملقى أمامه فوق المنضدة وكأنه ينظر إلى وباء يخشى أن يمسه فيصاب به؛ ولكنه في النهاية أخذه ووضعه في جيب سترته على أن يرى ما فيه فيما بعد..

نهض واقفاً في مكانه؛ وأخذ يتلفت حوله فلم يجد سوى الرجل شبيه الغوريلاً ما زال يمتص دخان النرجيلة وينفخه في الهواء كأنه قاطرة قديمة تعمل بالفحم؛ بينما اختفى الرجال الثلاثة الآخرون داخل الغرفة الملحقة بالمقهى..

حاول الهرولة خلف الفتاة التي غادرت المقهى؛ ولكنه شعر وكأنَّ قدميه قد سُمرتا في الأرض ولم يستطع التحرك من مكانه؛ فأخذ يصيح منادياً عامل المقهى المدعو *كارم*؛ الذي أتاه مهرولاً وقد أزعجه صياحه؛ فسأله *عمر* بعصبية شديدة قائلاً:

- **أين ذهبت تلك الفتاة.؟ ومن تكون.؟**

نظر إليه *كارم* متعجباً وقد فارقته ابتسامته اللزجة لأول مرة في هذه الليلة وقال له:

- **عن أي فتاة تتحدث يا سعادة البيك.؟**

صاح به:

- **تلك الفتاة التي غادرت المقهى لتوها؛ لقد كانت تتحدث إليّ حالاً ولكنها خرجت من الباب مسرعة دون أن أعرف من هي.؟ ولا ماذا تريد.؟**

كان الرجلان الآخران قد لحقا بعامل المقهى فشاركاه التعجب من كلام *عمر*؛ وتولى النحيف الرد فقال له بطريقة وقحة وقد علا وجهه مسحة من الغضب:

- **نساء قريتنا لا يخرجن من بيوتهن في مثل تلك الأوقات؛ ولا تتحدثن إلى الغرباء أيها الرجل.. ثم إنه لا توجد أي نساء يدخلن المقهى هذا أساساً..**

أخذ *عمر* يقلب بصره بينهم دون أن ينطق؛ وقد أصابه الذهول تماماً.. لقد كان متيقناً أنه ليس في كابوس آخر؛ وأنه رأى الفتاة فعلاً وسمع صوتها وهي تحادثه؛ وتطالبه بالرحيل؛ فقال له *كارم* بطريقته اللزجة السقيمة:

- اسمع أيها السيد المحترم.. نحن هنا نقدم المشروبات والطعام وحسب؛ وربما نقدم أشياء أخرى في الخفاء؛ ولكن النساء لسْن على قائمة الطلبات هنا؛ فليتك تدفع حساب ما تناولته؛ وتنصرف حالاً من هنا؛ ولتبحث عن فتاتك هذه في مكان من تلك الأماكن التي تكون وجبتها الأساسية النساء..

فهم *عمر* ما يرمي إليه هذا الرجل؛ فصاح به غاضباً:

- اسمع أنت أيها الحقير.. أنا لست كما تظن؛ وأنا لست متوهماً أيضاً؛ ولا بد أن هذا الضخم الجالس هناك قد رآها هو أيضاً؛ فلتسأله إذن..

ونظر إلى هذا الرجل الضخم الجثة؛ وكان يتابع هذا الحوار وقد ذهب نصف وعيه بسبب هذا الكم من المخدرات الذي دخنه.. هنا وقعت عيناه على الفتاة تقف في مدخل الغرفة الخلفية؛ وقد علا الذعر وجهها الشاحب؛ وهي تشير له بيديها إشارات سريعة بمعنى اهرب من هنا..

وما إن رآها *عمر* حتى صاح بهم وهو يشير إلى تلك الغرفة؛ ويصيح قائلاً:

- ها هي الفتاة..

وهم بالهرولة في اتجاهها؛ ولكنه ما إن تحرك من مكانه حتى شعر بدوار عنيف يضرب رأسه؛ وشعر بالأرض تميد به؛ وبأقدامه وقد صارت لينة وكأنها مصبوبة من العجين؛ فهوى فوق الأرض؛ ليصطدم رأسه بحافة مائدة مقابلة؛ ليسقط فوق الأرض فاقداً لوعيه تماماً..

الفصل الرابع

المحاكمة

المحاكمة

_____

(7)

أفاق *عمر* من إغماءته التي أصابته إثر سقوطه داخل المقهى؛ وتلك الصدمة القوية التي تلقاها رأسه؛ ليجد نفسه مقيداً إلى أحد المقاعد؛ وعن يمينه يقف هذا الرجل والذي ظنه العامل الذي يعد الأطعمة والمشروبات في هذا المقهى؛ وكان يحمل في يده سكيناً طويلةً..

وعن يساره يقف ذلك المدعو *كارم*؛ بينما أمامه مباشرة يقف هذا الرجل الضخم الجثة؛ أجش الصوت الذي خمن أنه سائق السيارة النقل التي كانت خارج المقهى؛ وبجانبه مساعده الذي كان برفقته طوال الوقت؛ وكانا يضمان ذراعيهما إلى صدرهما وتعلو وجهيهما ابتسامة ظفر شيطانة وكأنهما ليثان قد تمكنا من فريستهما ويتأهبان لالتهامها على مهل..

لم يكن *عمر* قد استعاد وعيه كاملاً بعد فلم يستوعب هذا المشهد أمامه؛ فصارت عيناه تدوران في محجريهما؛ وهو ينظر إلى هذا الجمع بنظرات زائغة غير واعية..

ولكنَّ قدحاً من الماء البارد سكبه أحدهم فوق رأسه أعاد إليه ما كان غائباً من وعيه..

أخذ ينقل بصره بين وجوههم التي بدت له وكأنها وجوه الشياطين بينما كان الرعب يشل أطرافه؛ رغم كل ما اشتهر به رباطة جأش وقوة شكيمة..

حاول أن يقول شيئاً ما إلا أن صوته لم يخرج من حنجرته؛ فقد انعقد لسانه؛ وصارت أحباله الصوتية وكأنها قد قطعت على حين غرة؛ فبقي صامتاً منتظراً ما سيفعلونه به..

عندما تبين لهم أنه قد استعاد وعيه كاملاً صاح بهم ذلك ضخم الجثة – والذي عرف فيما بعد أن اسمه كان الريس *عتمان* – قائلاً بصوته الأجش:

- ها هو قد استعاد كامل وعيه؛ لنبدأ المحاكمة إذن..

انطلقت آهة ذعر من حنجرة *عمر*؛ ولكنه لم يستطع غير ذلك فلقد تحجرت الكلمات في حنجرته ولم يستطع إطلاقها..

أشار الرجل الضخم إلى *كارم* لكي يبدأ؛ فمد الأخير يده في جيبه وأخرج منه بطاقة من تلك البطاقات التي تحمل اسم صاحبها ومهنته ورقم هاتفه؛ ثم نظر إلى *عمر* وقال له بصيغة استجوابٍ وكأنه ضابط شرطة؛ أو قاضٍ يجري معه تحقيقاً رسمياً:

- هل أنت * عمر حسين الشوباني*.؟

لم يجبه *عمر* على سؤاله فهو لا يزال مصاباً بالذهول الذي جعله يفقد القدرة على النطق من هول ما يحدث حوله؛ وظل يتساءل بينه وبين نفسه عما يفعله هؤلاء الأوغاد به.؟!

فإن كانوا يبغون من وراء كل هذا سرقة ماله؛ فلماذا لم يأخذوا المال ثم يلقون به على قارعة الطريق وتنتهي المسألة.؟

ثم ماذا يقصدون بكلمة محاكمة التي نطق بها ضخم الجثة المدعو الريس *عتمان*؛ والذي يبدو وكأنه كبيرهم الذي علمهم الشر.؟!

وعندما طال صمته ولم يجب؛ لكزه هذا العامل الآخر والذي كان يدعى *إسماعيل* بكعب السكين الطويلة التي كان يحملها في يده كي يحثه على الرد؛ ولكنه لم ينطق وإنما هز رأسه فقط بما يعني أنه هو *عمر حسين الشوباني*..

وهنا اتسعت ابتسامة الظفر على وجه الريس *عتمان*؛ وأطلق ضحكة مجلجلة قائلاً:

- إذن فقد جئت أخيراً بعد كل تلك الأعوام.؟

ثم قرب وجهه من وجه *عمر* حتى إنه اشتم رائحة أنفاسه الكريهة تقتحم أنفه؛ بينما كان هذا الفظ يضغط بيديه كتفيه وهو يقول له بصوت يشبه فحيح الأفعى:

- لقد انتظرناك طويلاً أيها الوغد الداعر؛ لقد مرت سنوات؛ وسنوات ونحن في انتظارك؛ ولكننا كنا على يقين أنك سوف تأتي في يومٍ من الأيام؛ فلابد للمجرم أن يحوم دائماً حول مكان جريمته؛ وأظنك لم تخالف تلك القاعدة..

ورغم اشمئزاز *عمر* من رائحة أنفاسه الكريهة إلا أنه حاول قدر الإمكان أن ينطق؛ فخرج صوته مبحوحاً وهو يقول:

- عن أي جريمة تتحدث أيها الوغد.؟ ومن هو هذا المجرم الذي حام حول مكان جريمته.؟ هل تعرفونني من قبل.؟ ومن أنتم لكي تفعلوا ما تفعلونه بي الآن.؟

صاح فيه الشاب النحيف قوي العضلات رفيق الرجل ضخم الجثة قائلاً بصوت حاد:

- لقد اعترفت لتوك إنك * عمر حسين الشوباني*؛ ففيمَ الجدال إذن.؟

فصاح به *عمر* وقد استعاد قدرته كاملة على الكلام:

- هل كوني *عمر الشوباني* فذلك يمثل جريمة.؟ نعم أنا هو؛ ولكن ما هي جريمتي.؟ وما علاقتها باسمي.؟

فتحدث العامل الآخر المدعو *إسماعيل* قائلاً بنفاذ صبر:

- يبدو أنه سوف يتعبنا كثيراً يا ريس *عتمان*

ثم نظر إلى الجميع قائلاً:

- اسمعوا.. نحن الآن قد تأكدنا من شخصيته فلسنا بحاجة إلى اعترافه بجريمته التي ارتكبها منذ سنوات طويلة؛ فيكفينا أننا متأكدون من جرمه؛ فلنصدرْ حكمنا عليه؛ ولننتهِ من هذا الأمر قبل أن تشرق شمس يومٍ جديد..

ثم أشار إلى *عتمان* وقال له:

- تفضل يا ريس وانطق حكمنا عليه..

فصرخ بهم قائلاً:

- أي حكم هذا أيها المجانين.؟ من المؤكد أن هناك خطأ ما.؟ لا بد أنكم تقصدون * عمرَ* آخر غيرى.؟

لكزه *كارم* في صدره لكزة قوية آلمته بشدة؛ وقرب تلك البطاقة التي في يده من وجهه قائلاً:

- أليست تلك بطاقتك.؟ أم أنك ستنكر هذا أيضاً.؟

نظر إلى البطاقة في هذا الضوء الشاحب فوجد اسمه كاملاً مكتوباً فوقها؛ وتحت الاسم توجد كلمة رجل مال وأعمال؛ وفي الأسفل يوجد رقم هاتف ولكنه يبدو قديماً جداً فقد كان يتألف من خمسة أرقام فقط..

ولكنه لم يستطع أن يتذكر هذا الرقم؛ كما أنه لم يستطع أن يجزم إن كانت تلك البطاقة تخصه أم لا.؟ فلم يكن بها شيء يميزها عن غيرها إلى جانب أنها كانت من تلك البطاقات الشائعة الاستخدام بين أثرياء القوم؛ ولكن كل هذا لا يجعل منها بطاقته على وجه اليقين؛ فهز رأسه نافياً وقال له:

- **لا أستطيع أن أتيقن هل تخصني أم لا؛ ولكنى لا زلت أجهل علاقة تلك البطاقة بالموقف الذي أنا فيه الآن.؟**

فعاد *كارم* يقول له:

- **هذه البطاقة هي دليل جرمك وقد وجدناها مع ضحيتك؛ فإن لم تكفِك كدليل على أنك أنت المقصود؛ وليس أحد غيرك فإليك هذا الدليل الآخر..**

قال *كارم* جملته تلك وهو يضع يده في جيب بنطاله؛ ويخرج منه مظروف قديم قد اصفر لونه وتجعد ورقه فكادت أن تختفي ملامحه..

حدق عمر في المظروف وهو بيد *كارم*..

إنه نفس المظروف الذي ألقت إليه به الفتاة؛ لقد أخذوه من جيبه إذن..

فتح *كارم* المظروف ليخرج منه ورقة مثنية؛ ففتحها وثنى طرفها بحيث لم يعد ظاهراً من محتواها سوى السطرين الأخيرين فيها؛ ثم قربها من وجهه قائلاً بحدة:

- أليس هذا خطك.؟ وهذا هو توقيعك.؟

دقق *عمر* النظر في تلك الورقة فلم يستطع إلا أن يقرأ آخر كلمات في السطر قبل الأخير؛ وكان مكتوباً فيها (وهذا إقرار مني بذلك) ثم في النهاية كان توقيعه؛ وباسمه..

لقد كان الخط خطه حقاً؛ حتى لو كانت عمر الورقة يعود لسنوات بعيدة ولكنه خطه ولا يمكنه أن يجهله؛ ثم إن هذا هو توقيعه بالفعل والذي لم يبدله طيلة عدة سنوات؛ ولكنه لم يستطع أن يتبين باقي مضمون الورقة؛ وبالتالي لم يفهم شيئاً بعد..

لاحظ الريس *عتمان* الحيرة بادية في وجهه فقال له مكشراً عن أنيابه:

- هل صدقت الآن أيها الوغد أننا لم نتجن عليك.؟ لقد كان هذا اعتراف منك بجريمتك الشنعاء؛ ولقد كان أيضاً داخل ثياب ضحيتك التي رحلت نتيجة غدرك..

عاد عمر يصرخ من جديد قائلاً:

- **أنا لم أنكر أن هذا خطي؛ وأن الورقة ممهورة بتوقيعي فعلاً؛ ولكني ما زلت لا أعرف أي جرم في هذه الورقة؛ أو في كوني صاحبها.؟ فهل من العدل أن أعاقب على جريمة لا أعرفها؛ ومن أشخاصٍ لم يسبق لي مقابلة أحد منهم من قبل.؟!**

ضغط *عتمان* على أسنانه وهو يقول له بحنق:

- **ما دمت مصرَّاً على ادعاء الجهل بجريمتك؛ فلك أن تعلم أن ضحيتك ماتت وهي أيضاً لا تعرف سبباً لموتها؛ فذلك هو العدل إن كنت تبحث عنه؛ أما الآن فعليك أن تغلق فمك الكريه هذا إلى الأبد؛ فلقد مللنا مراوغتك؛ وعليك أن تتقبل مصيرك وعقابك الذي تستحقه..**

ثم طلب من *كارم* أن يكمم فمه بمنديل كبير؛ وهنا صاح بهم *إسماعيل* وهو يمرر سكينه الضخمة فوق كفه وكأنه يحده؛ وعيناه تومضان ببريق مجنون والزبد يتناثر من شدقيه:

- **دعوه لي.. لقد انتظرت تلك اللحظة منذ سنوات طويلة؛ ولن يمنعني أحد الآن من تقطيعه إرباً؛ وإلقائه إلى كلاب الطريق لكي يجعلوا منه وليمة لهم لعدة أيام قادمة..**

ولكن الضخم الجثة أشار إليه ليصمت؛ ثم حك لحيته الشبه نامية بأصابعه مفكراً؛ ثم قهقه ضاحكاً ضحكة شيطانية ونظر إلى عيني *عمر* بشراهة مجنونة قائلاً بخبث:

- **أين ذهب كرم ضيافتكم يا قوم.؟ إنه ضيفنا؛ وعلينا إكرامه؛ ولهذا يجب علينا أن نقدم له موتة خاصة؛ موتة أكثر شاعرية من الذبح والتقطيع.. لماذا لا نلقى به بجانب جسم جريمته.؟ وندعه يموت ألف مرة كلما رأى ملاك الموت يحوم فوق رأسه لعدة أيام قادمة قبل أن يقبض روحه.؟ فهل هناك شاعرية أكثر من هذا.؟**

جاوبه الجميع بضحكات شيطانية؛ وسط عبارات الاستحسان لفكرته العبقرية..

***

(8)

أخذوا يدورون حوله وهو مقيد في مقعده؛ وكأنهم قبيلة من القبائل البدائية يرقصون حول قربانهم قبل تقديمه لآلهتهم الوثنية؛ بينما كان *عمر* يرى كل هذا الجنون بعينيه؛ ويسمعه بأذنيه؛ ولكنه غير قادر علي النطق بسبب تلك الكمامة التي أغلقت فمه تماماً..

ولكن حتى لو كانت قد أزيلت تلك الكمامة فهو قد فقد النطق بالفعل من هول الرعب الذي يحيط به؛ لقد كان موقفاً مجنوناً بحق..

لم يكن الموت في حد ذاته هو الذي أرعبه؛ فقد مر بمواقف كثيرة تمنى فيها الموت الذي أصبح غير بعيد عنه خاصة بعد مرضه الأخير ولكن الذي أصابه بالرعب حقاً هي تلك الطريقة التي سينفذون بها حكمهم المستبد عليه؛ هذا بخلاف أنه حتى تلك اللحظة لم يعرف شيئاً عن تلك الجريمة التي سيدفع حياته ثمناً لها..

ظل يزوم بحنجرته؛ ويتحرك في مقعده محاولاً التخلص من قيوده رغم يقينه أنه حتى لو تخلص منها فلن يقوى على الهرب من أربعة رجال يبدو على محياهم القوة والبأس؛ والإصرار العجيب على قتله..

حاول أن يعتصر ذهنه لعله يتذكر شيئاً في ماضيه جعله يقف هذا الموقف المرعب..

هل هو مجرم حقاً كما يقولون.؟!

هل يكون قد ارتكب جريمة قتل ما فيما مضى ثم تعرض لحادث ما جعله يفقد ذاكرته؛ فانمحت منها أي تفاصيل عنها.؟! وها هو الآن يدفع ثمنها.؟!

شعر برأسه يكاد ينفجر دون أن يحصل على جواب واحد لأي من تلك الأسئلة التي تعصف به؛ ولكنه في النهاية قرر أن يكف عن التفكير؛ فكما سمعهم يقولون إنهم سوف يتركونه في مكان ما لينتظر فيه الموت جوعاً وظمأً ورعباً لعدة أيام قادمة؛ فلعله يستطيع أن يتذكر شيئاً خلال ذلك الوقت؛ ووقتها فقط قد يلفظ أنفاسه وهو يعلم ذلك الجرم الذي أودى به..

كف *عمر* عن التفكير ولكنه لم يكف عن الحركة محاولاً أن يتخلص من قيوده كأَمَل أخير في أن ينال من أحدهم طعنة سكين تمنحه موتةً سريعةً بدلاً من تلك الموتة البشعة التي يدبرونها له؛ ولكنهم كانوا ينظرون إلى محاولاته البائسة لفك قيوده وقد زادت ضحكاتهم الساخرة..

وفي تلك اللحظة وقع بصره على باب الحجرة الداخلية والتي صارت في مواجهته الآن؛ ورآها تقف هناك..

نعم هي نفس الفتاة..

لقد كانت تقف هناك والدمع يسيل من عينيها فيغرق وجنتيها؛ وكانت نظراتها إليه تحمل الكثير والكثير من الأسى والحزن..

تحمل لوماً له؛ وكأنها تقول له بعينيها:

- ألم أقل لك: اذهب من هنا بسرعة.؟

عادت تلك الفتاة لتحتل تفكيره مرة أخرى.. لقد غابت عن باله تماماً منذ أن أفاق من غشيته..

فمن تكون هذه الفتاة.؟!

ولماذا فعلت ما فعلت معه من تحذيره ومطالبته بالهروب.؟

وإن كان لديها ما دعاها لتحذيره؛ فلماذا تقف الآن صامتة مكتفية بدمعها السخين؛ دون أن تحرك ساكناً.؟!

ولكنه لم يستمر في أفكاره كثيراً؛ فقد حانت لحظة النهاية..

فبإشارة من كبيرهم – صاحب الجثة الضخمة – تقدم منه *كارم* وزميله العامل الآخر *إسماعيل*؛ فقاما بفك قيوده من المقعد؛ وأحكما قبضتيهما على ذراعه، بينما التف ثالثهم ذلك النحيف وقام بتقييد يديه خلف ظهره؛ ثم انحنى وقيد قدميه؛ أما

***عمر* فلقد خارت قواه تماماً ولم يعد لديه أي قوة؛ فاستسلم لأيديهم تفعل به ما يشاءون..**

قام الرجال الثلاثة بحمله فوق أكتافهم؛ كأنهم يحملون جثة؛ بينما سبقهم هذا الضخم؛ وفتح باب المقهى وتقدمهم في المسير نحو المجهول..

كانت الأمطار قد عادت تهطل من جديد؛ ولكنه لم يكن ليتأثر بمطر أو برودة طقس؛ وهو على تلك الحالة التي صار عليها..

كان كل ما يشغل تفكيره الآن هو ذلك المصير الذي سينتهي إليه..

سار هذا الموكب العجيب في نفس الطريق الذي جاء منه *عمر* قبل أن يدخل هذا المقهى اللعين.. كان الظلام يحيط بهم تماماً؛ ولم يكن هناك سوى ضوء النجوم التي ظهرت في السماء الآن بعدما صفت قليلاً؛ ولكنهم كانوا يسيرون بخفة؛ وكأنهم يعرفون كل شبر في هذا الطريق دون أن يروا شيئاً تحت أقدامهم..

انحرفوا يساراً في نفس الطريق الذي سارت فيه تلك الفتاة المجهولة عندما هبطت من سيارته منذ قليل؛ ولضيق الطريق كانوا يسيرون في صف واحد يتقدمهم هذا الضخم المدعو *عتمان*..

ظلوا في مسيرتهم الصامتة تلك وكأنهم يشيعون جنازة؛ وإن كان الميت هذه المرة ما زال على قيد الحياة؛ ولكنه كان قد استسلم لهم

تماماً وكف حتى عن أي حركة تُظهر أنه لا زال يتنفس.. ولو كان رآه أحد لظنه جثة بالفعل..

لقد عرف الآن فقط إحساس المحكوم عليه بالموت حين يقيدونه ويقتادونه إلى غرفة الإعدام ليرى حبل المشنقة يتراقص أمام عينه دون أن يملك أي سبيل للخلاص..

وإن كان الأخير أفضل حظاً منه؛ فهو على الأقل يعلم لماذا يلفون حبل المشنقة حول عنقه؛ فضلاً عن أنه منذ البداية كانت لديه الفرصة للدفاع عن نفسه.. تلك الفرصة التي لم تتح له على الإطلاق..

انتهت تلك الرحلة القصيرة الصامتة عندما توقف الركب فجأة؛ وحرك *عمر* رأسه محاولاً أن يرى إلى أين انتهت المسيرة؛ ويا لهول ما رأى..

لقد توقفوا أمام فوهة بئر من تلك الآبار التي تدور بها السواقي لكي ترفع منها الماء..

كانت البئر مهجورةً كما بدت له؛ فلقد كانت هناك بالقرب منها ساقية خشبية قديمة؛ ومحطمة؛ وربما كانت جافةً أيضاً ولا يوجد بها ماء إلا ما امتلأ بها من مياه الأمطار الغزيرة في هذا اليوم..

شعر *عمر* برأسه يدور ويدور؛ وقلبه المريض يخفق بشدة..

أهذا هو مصيره.؟

هل سيقضى في قاع هذه البئر الأيام الباقية له حتى يأتيه الموت.؟

أنزلوه من فوق أكتافهم؛ وأوقفوه على قدميه المقيدتين على بعد مترين تقريباً من هذه البئر؛ وقام أحدهم بتمزيق قيود يديه وقدميه بمدية كانت معه؛ ثم أخذو يسحبونه تجاه فوهة البئر.. ثم رفعوه وألقوا به من فوهته وسط ضحكاتهم الشيطانية..

الفصل الخامس

العودة من الموت

----

(9)

لم يعد *عمر* يشعر بالأرض تحت قدميه؛ فلقد كان يهوي داخل البئر حتى لامست قدماه قاعها؛ وكأنه حجر ضخم ألقاه طفل مشاغب داخل البئر..

لم يكن حلماً هذا الذي يشعر به.. لم يكن كابوساً آخر..

فها هو يشعر بكل عظمة في جسده تصرخ من شدة الألم..

ها هو يشعر ببرودة الماء تنخر في جسده وكأنها إبر مسننة من الثلج..

ها هو يشعر بضيق البئر وإحاطتها به من كل جانب..

إذن فهو ليس في حلم آخر من تلك الأحلام المفزعة التي أجهدته على مدار الشهور والسنوات الأخيرة؛ وإن كان يعيش معظم تفاصيله الآن وفى تلك اللحظات؛ ولكن يعيشها في الواقع..

إنه نفس الظلام الحالك الذي كان يحيط به في كابوسه..

نفس الطقس الراعد الممطر..

نفس الطريق.. نفس الأوحال..

وأخيراً نفس البئر التي كانت تحاول أن تبتلعه في الكابوس..

وها هى تبتلعه بالفعل في عالم الواقع..

لم يعد أمامه الكثير قبل أن ينتهي كل شيء..

لم يعد هناك إلا دقائق وينتهي هذا الذي كان يوماً يسمى *عمر الشوباني*..

لم يعد هناك الكثير قبل أن تنفجر رئتاه وهما تقاتلان للحصول على الهواء..

هل يستسلم لسكرة الموت.؟

أم يقاوم ولو لدقيقة أخرى لعل وعسى.؟

ولكن.. هل هناك يدٌ تسحبه من بين جدران هذه البئر.؟

أم أنها أوهام ما قبل الموت.؟

لم يعد يهتم.. لم يعد يشعر..

فلقد سقط سريعاً في بئر الغيبوبة..

ولم يعد على يقين هل هي غيبوبة الموت.؟

أم غيبوبة العودة إلى الحياة.؟

***

بدأ *عمر* يشعر بما حوله رويداً رويداً..

بدأ يسمع هذه الهمهمات؛ وتلك الأصوات الخفيضة التي تتحدث حوله..

ربما لم يستطع فهم ما تقوله تلك الأصوات؛ ولا تمييز ما يدور حوله ولكنه حتماً في مكان آخر غير هذه البئر اللعينة..

لعله يكون الآن في قبره وتلك هي أصوات الملائكة تحاسبه..

شعر بيد تمسك رسغه؛ وصوت يقول:

- **لقد بدأ يستعيد وعيه؛ مؤشرات الأجهزة تقول ذلك؛ وكذلك نبضه بدأ يعود إلى طبيعته؛ ولكنه ما زال غارقاً في تلك الغيبوبة؛ التي أظن أن سببها كان نقص الأكسجين؛ وعدم وصوله إلى المخ لعدة دقائق أثناء تجربة الغرق التي تعرض لها..**

جاوبه صوت نسائي قلق:

- **ومتى تظنه سيفيق من تلك الغيبوبة يا دكتور.؟**
- **هذا في علم الله سيدتي.. قد يفيق الآن؛ وقد يفيق بعد أيام وربما شهور.. فنحن لا نعرف بعد ما فعله نقص الأكسجين في المخ.. ولكني أعتقد أنها لن تطول..**

عاد الصوت النسائي يقول بحزم:

- ولهذا فأنا مصرة على نقله من هنا إلى القاهرة؛ فالإمكانيات هناك أفضل بكثير..
- أعتقد أن كلامك هذا سابق لأوانه سيدتي.. علينا أن ننتظر خروجه من غيبوبته التي سقط فيها منذ يومين لنرى ما يجب علينا فعله؛ ثم لماذا تريدين نقله من هنا.؟ فها هو في غرفة خاصة بناءً على طلبك؛ ونحن لم نقصر في شيء تجاهه..

كان *عمر* قد بدأ يستعيد صفاء ذهنه؛ ويفيق تماماً من غيبوبته في هذا الوقت؛ ولكنه آثر ألا يفتح عينيه حتى يستجمع كل قواه..

كان قد ميز صوت زوجته *ليلى* التي كانت تتحدث مع الطبيب عن حالته؛ وأدرك أنه الآن في مشفى ما بالقرب من تلك القرية التي كاد أن يفقد حياته فيها..

لم يكن يعلم كم من الوقت مر عليه في هذا المشفى؛ ولا كيف خرج من البئر قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة غرقاً في مائه العطن؛ لقد كان آخر شيء شعر به وهو بين سكرات الموت وتشبثه بالحياة هي تلك اليد التي جذبته بقوة خارج البئر قبل أن يفقد الوعي ويسقط في تلك الغيبوبة..

كان الجدال لا يزال مستمراً بين زوجته وبين الطبيب؛ ولذا فقد قرر *عمر* أن يفصح عن عودته إلى عالم الأحياء مرة أخرى؛ ففتح عينيه ودار بهما في المكان حوله؛ ثم قال بصوت منهك:

- أتفق مع *ليلى*.. أريد الرحيل من هنا؛ ولكن إلى البيت وليس إلى مشفى آخر..

ما إن نطق بتلك الكلمات حتى جرت *ليلى* وألقت برأسها فوق صدره تحتضنه؛ وقد سالت دموعها؛ لتنفث بها عن توترها طوال تلك الفترة التي قضتها هنا في هذا المشفى منذ أن أخبروها بالحادث وحتى تلك اللحظة..

فوجئ *عمر* بتلك المشاعر الفياضة من زوجته؛ والتي يراها ربما للمرة الأولى؛ فلقد اعتاد منها الجمود كثيراً؛ وعدم التعبير عما يجيش بداخلها؛ خاصة في الأيام الأخيرة..

ولكنه ها هو يرى الآن أمامه امرأة متأججة المشاعر ولا تخجل من إظهارها حتى أمام هذا الطبيب الذي كان يتفحصه في تلك اللحظة..

تأثر *عمر* كثيراً؛ وأحس بداخله أنه ربما يكون قد ظلم تلك المرأة كثيراً..

ربما كان لم يألُ جهداً لكي يوفر لها كل أسباب السعادة والهناء؛ ولكن دون إحساس صادق داخله.. دون مشاعر حب حقيقية؛ وإنما من باب الشعور بالواجب والمسئولية فحسب..

انتهى الطبيب من فحصه جيداً وقياس كل عملياته الحيوية؛ وأخيراً ابتسم قائلاً له:

- **حمداً لله على سلامتك يا أستاذ *عمر*.. الحمد لله أنت في حالة جيدة الآن..**

سأله *عمر* وهو يربت على رأس زوجته:

- **كيف أتيت إلى هنا.؟! لقد كنت أعتقد بأنني قد مت فعلاً..**

ضحك الطبيب ضحكة مرحة قائلاً:

- **أنت بالفعل تستطيع أن تقول إنك قد مت ثم عدت إلى الحياة مرة أخرى.. مجازاً طبعاً وليس واقعاً؛ ولكنك كنت فعلاً على شفير الموت..**

توقف الطبيب عن الحديث لحظة ثم أكمل:

- **ولكن يبدو من حديثك أنك كنت تدرك كل ما يحدث حولك بعد سقوطك في الماء؛ وقبل أن تسقط في تلك الغيبوبة.. أليس كذلك.؟**

أجابه بصوتٍ مجهد:

- **بلى، بالطبع كنت أدرك كل شيء؛ وإن بدا لي الأمر وكأنه كابوسٌ آخر..**

رفعت *ليلى* رأسها عندما سمعت كلمة كابوس.. نظرت إليه نظرة تساؤل؛ فربت على وجنتها فقد فهم من نظراتها ما تريد قوله فأردف قائلاً:

- نعم.. كنت أشعر وكأنني أعيش كابوساً.. ولكني الآن تيقنت أنه لم يكن حلماً؛ بل هو الواقع بعينه؛ والدليل هو أنني هنا..

في تلك اللحظة دخلت إحدى الممرضات لتخبر الطبيب أن ضابطاً من رجال الشرطة يريد أن يرى المصاب ويسأله بعض الأسئلة هذا إن كانت حالته تسمح بذلك.. فأشار لها الطبيب أن تدعه يدخل..

دخل الغرفة ضابط شاب في زيه الرسمي؛ وبرفقته شرطي آخر يضع بضع شرائط على ذراعه اليُمنى..

رحب الطبيب بالضابط الذي قدم نفسه باسم الملازم أول *أشرف فوزي* من قوة شرطة مركز (إهناسيا)..

انتبه *عمر* عندما سمع الضابط يذكر مركز (إهناسيا)؛ فهذا يعني أنه تابع لمحافظة (بني سويف)؛ فما الذي أتى به إلى هنا.؟

تحدث الضابط إلي الطبيب مستفسراً عن حالة المصاب؛ وإمكانية طرح بعض الأسئلة عليه؛ فأجابه بأنه لم يفق من غيبوبته إلا منذ عدة دقائق ولكنه يعتقد أن المصاب يمكنه أن يجيب بعض الأسئلة؛ ولكن

بشرط عدم الضغط عليه؛ وإرهاقه بالكثير منها؛ وأنه سوف يتواجد معهم لعل المصاب يحتاج تدخله..

قدم الطبيب السيدة *ليلى* إلى الضابط وعرفه أنها زوجة المصاب والتي أصرت على التواجد أثناء سؤال زوجها؛ فلم يرَ الملازم *أشرف* مانعاً من بقائها بالغرفة..

تقدم الضابط من فراش *عمر* وحياه ثم جلس فوق مقعد بجواره وأشار إلى الشرطي المرافق له فناوله الأخير مظروفاً كبير الحجم من تلك المظاريف الحكومية؛ وأخرج منه حافظة نقود كبيرة من الجلد الفاخر؛ وبطاقة تحقيق الشخصية؛ ورخصة القيادة؛ ثم عرض تلك الأشياء على *عمر* الذي أجابه أنها تخصه فعلا ولكنه سأله متعجباً:

- **أين باقي الأشياء.؟ لقد كانت تلك الحافظة تحوي مبلغاً كبيراً من المال لا أعرف قيمته على وجه الدقة؛ ولكنه مبلغ يتخطى أربعمائة جنيه على أقل تقدير.!**

ثم نظر إلى ساعده وأصابع كفيه وقال:

- **ثم أين ساعتي السويسرية الذهبية.؟ وخاتمي الماسي.؟ وهناك علبة لفائف التبغ الذهبية وكذلك قداحة من الذهب.! فأين ذهبت كل تلك الأشياء.؟!**

أخذ جميع من بالغرفة ينظر إلى *عمر* بدهشة بينما قال له الضابط:

- **ما تراه أمامك الآن هو كل ما وجدوه معك حينما أحضرتك سيارة الإسعاف إلى هنا؛ وقد احتفظ بها مسؤول الأمن في المشفى وكتب بها مذكرة؛ لم يذكر فيها سوى ما أريته لك الآن؛ وكلامك هذا لا يعني إلا أن هناك من سرق متعلقاتك الباهظة الثمن تلك.!!**

قال الضابط تلك الكلمات ثم نظر إلى الطبيب نظرات ذات مغزى؛ فهمها الطبيب وأجابه على الفور وهو يقلب كفيه بما يعني أنه لا يعرف شيئاً وقال له:

- **أعتقد أن مثل تلك الأشياء مسؤولية الأمن هنا؛ ولكني أستطيع أن أقول: إنه – وخلال سنوات عملي هنا – لم يحدث أن فقد أحد النزلاء هنا أي متعلقات خاصة به؛ هذا بالطبع إن كانت قد فقدت منه أصلاً.!**

صاح به *عمر* محتداً:

- **نعم.. لقد سرقت مني بالفعل؛ وليس تلك الأشياء فقط هي التي سُرقت مني؛ ولكن كانت هناك أيضاً حقيبة جلدية بها مبلغ ثلاثمئة ألف جنيهٍ..**

خيم الصمت على الجميع بينما صاحت زوجته:

- **هل سُرق منك ثمن الأرض أيضاً.؟ ألم أقل لك ألا تسافر وحدك بالسيارة؛ وتعود حاملاً مثل هذا المبلغ الضخم.؟!**

وهنا قال الطبيب:

- **ربما كانت حقيبة المال لا تزال في السيارة.؟!**

رد عليه الضابط قائلاً:

- **لقد أخرجنا السيارة من النيل صباح اليوم ولم نعثر فيها إلا على رخصة السيارة وبعض الأشياء الأخرى غير ذي قيمة؛ ولكن لم يكن هناك أي أثر للحقيبة التي تتحدثون عنها..**

ردت *ليلى* قائلة:

- **لعلها تكون قد سقطت منها أثناء غوصها في قاع النيل؛ عليكم إذن أن ترسلوا من يبحث عنها في نفس المكان الذي انتشلتم منه السيارة..**

كان *عمر* يتابع حوارهم وهو في غاية الدهشة؛ ولكنه في النهاية صاح بهم:

- **مهلاً.. مهلاً.. عن أي سيارة.! وأي قاع نيلٍ تتحدثون.؟!**

أجابه الضابط:

- ألا تدري عن أي سيارة نتحدث.؟! نتحدث عن سيارتك التي سقطت في قاع النيل وأنت بداخلها؛ لولا عناية الله هي التي أنقذتك.. يبدو أنك قد استطعت الخروج منها قبل أن تغوص تماماً في القاع..

وهنا قفز *عمر* جالساً؛ ورغم أنه شعر بدوار عنيف نتيجة الحركة المفاجئة إلا أنه صرخ بهم وكأنه قد أصابه مسٌ من الجنون:

- ماذا تقولون.؟! هل غرقت سيارتي في النيل.؟! وكنت أنا بداخلها أيضاً.؟! أي جنون هذا الذي تهذون به.؟! ثم إن حقيبة النقود كانت معي ولم أتركها في السيارة عندما دخلت ذلك المقهى في قرية (أبو مندور) بالقرب من محافظة المنيا؛ وحدثت هناك أشياء غريبة ومرعبة في آن واحد.. فلقد تعثرت وسقطت فوق الأرض واصطدم رأسي بشيء ما؛ لأفيق بعدها وأجد بعض الأوغاد من العاملين هناك وقد قيدوا معصميّ وعقدوا لي محاكمة عجيبة عن جريمة لا أعرف ما هي.؟! ولا متي ارتكبتها.؟ ليصدروا بعدها حكمهم عليّ بالموت؛ ثم يحملوني فوق أكتافهم ويسيروا بي إلى حيث هذه البئر المهجورة التي كانت قد امتلأت بمياه الأمطار الغزيرة؛ ويلقون بي داخلها لأصارع الموت غرقاً؛ حتى شعرت بتلك اليد التي كانت تسحبني خارج البئر بعد أن كدت أستسلم للموت؛ ولكني لا أذكر أي شيء بعد هذا؛ فقد سقطت في غيبوبة لم أفق منها إلا هنا..

❋ ❋ ❋

(10)

نزلت كلماته تلك فوق رؤوسهم كالصاعقة؛ فما كان لأحد أن يصدق ما قاله *عمر* عن تلك المحاكمة؛ وهذه العصابة التي حكمت عليه بالموت غرقاً في هذه البئر المهجورة..

حتى زوجته نفسها كانت تنظر إليه بدهشة وعدم تصديق لحرف واحد مما يقول؛ وإن كانت نظراتها تحمل الكثير من الحزن والإشفاق؛ وكأنها أمٌ ترى ولدها وقد سقط في هاوية الجنون..

ولكن ما أثار عجبهم أكثر كان هو إصراره العجيب على روايته تلك حتى إنه دخل في مشادة حامية مع ضابط الشرطة الذي أصر على رفض كل ما يقوله *عمر*؛ مما زاد من هياج الأخير فلم يجد الطبيب بداً من حقنه بعقار مهدئ ليستعيد هدوءه؛ وأن يطالب الضابط بأن يكتفي بهذا القدر من النقاش..

بدأ *عمر* بالفعل يستعيد هدوءه؛ واسترخى جسده تماماً بعدما سرى العقار في عروقه؛ فاصطحب الطبيب الملازم أول *أشرف* إلى خارج الغرفة؛ وتوجها سوياً إلى الاستراحة؛ ثم لحقت بهما *ليلى* بعدما شعرت أن النوم قد بدأ يداعب أجفان زوجها..

كان الضابط لا يزال محتداً يتحدث إلى الطبيب بقدر كبير من الانفعال والعصبية؛ وعندما اقتربت *ليلى* منهما صاح بها قائلاً:

- **لابد أن زوجك هذا قد أصيب بلوثة عقلية؛ فما يقوله لا يصدقه أحد حتى لو كان طفلاً يحبو..**

نظرت إليه *ليلى* نظرة ملأها الغيظ وكادت تنفجر لتفرغ فيه كل توترها الذي أصابها خلال هذين اليومين؛ ولكنها تماسكت في اللحظة الأخيرة؛ وحاولت امتصاص انفعاله فقالت له بهدوء وإن كانت لهجتها تحمل الكثير من اللوم:

- **لا تنس يا حضرة الضابط أن زوجي قد مر بتجربة أليمة؛ اقترب فيها من الموت حتى كاد أن يلامسه بكفيه؛ وكنت أظن أنك سوف تقدر حالته تلك وأنت تناقشه..**

بدأ الهدوء يعود فعلاً إلى *أشرف* فأكملت *ليلى* كلامها قائلة:

- **ثم إنك لو نظرت إلى الأمر نظرة مجردة بعض الشيء لوجدت أن قصة *عمر* تحمل بعض الوجاهة..**

اندهش *أشرف* من قولها فسألها ساخراً:

- **وأي وجاهة في كل ما قاله زوجك.؟**

تغاضت *ليلى* عن لهجته الساخرة وأجابته بنفس الهدوء:

- **ربما أكون غير مقتنعة بمعظم ما جاء في قصته؛ ولكن ما قاله يفسر لنا سر اختفاء حقيبة المال؛ فلو افترضنا أن باقي متعلقاته قد سرقت منه هنا في المشفى؛ أو حتى يكون هذا الشخص الذي وجده ملقىً في الطريق وأبلغ الإسعاف والشرطة هو من فعل ذلك.؟ فأين ذهبت حقيبة المال إذن.؟**

وهنا تدخل الطبيب مجيباً:

- **ربما تكون قد سقطت من السيارة كما اقترحتِ أنتِ منذ قليل.؟ وربما لم تكن معه منذ البداية؛ وقبل أن يسقط في النيل بسيارته.؟**

أجابته *ليلى* بحدة:

- **إن زوجي لم يكذب بشأن الحقيبة؛ فهي كانت معه فعلاً قبل أن يخرج من البيت في طريقه إلى بلدته لكي يوقع عقد بيع قطعة أرض يملكها هناك؛ ومن المؤكد أنه وضع النقود التي حصل عليها داخل هذه الحقيبة؛ وحتى إن لم يكن هناك مالٌ؛ فأين ذهبت الحقيبة نفسها.؟**

خيم الصمت عليهم لحظات ثم تحدث *أشرف* قائلاً:

- **على كل حال يا سيدتي نحن لم نفحص السيارة بعد؛ ولم نعرف حتى الطريقة التي خرج بها منها؛ فربما بعد فحصها يتبين لنا**

أشياء جديدة.. فالأمر كله لم يكن يعني لي إلا حادث سير مثل العديد من الحوادث التي تقع على هذا الطريق كل فترة؛ ولكن بعد الرواية التي رواها زوجك الآن – فإن صدق في بعضها حتى – فالأمر هنا يختلف تماماً.. فإما أن نكون أمام قضية سرقة واضحة؛ وقد تصل أيضاً إلى حد جريمة الشروع في القتل..

ثم نظر إلى *ليلى* نظرة تحمل الشك وأردف قائلاً:

- **وإما أن يكون زوجك قد أصابه الخبل تماماً بعد هذا الحادث الذي تعرض له.. وفي كل الأحوال لم يعد أمامي سوى تقديم تقريري للرؤساء عما حدث هنا ولهم وحدهم الكلمة الأخيرة والتصرف حينها..**

الفصل السادس

يبدو أني قد جُننت

يبدو أني قد جننت.!!

----

(11)

كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحاً عندما دخل الطبيب غرفة *عمر الشوباني* وقام بفحصه جيداً؛ فوجده في حالة طيبة؛ ولم يجد أي مانع في خروجه من المشفى؛ فلم يكن هناك أي كسور أو إصابات خطرة؛ فلم يزد الأمر عن بعض الخدوش والسحجات...

كان الطبيب قد أصر أن يبيت *عمر* ليلته هذه على الأقل في المشفى محمِّلاً زوجته المسؤولية عن تدهور حالته الصحية إذا ما أصرت على نقله إلى مشفى آخر بالقاهرة قبل أن تستقر حالته؛ خاصة بعدما حدث أثناء نقاشه مع ضابط الشرطة الذي جاء ليسأله عما حدث له..

فلم تجد *ليلى* بداً من الطاعة حتى لا تتدهور حالة زوجها؛ وخاصة أنه غارق في النوم منذ أن أعطاه الطبيب ذلك العقار المهدئ الذي حقنه به؛ وقد ظل نائماً حتى هذا الصباح..

كان *عمر* يرتدي ثيابه التي كانت زوجته قد أحضرتها له؛ استعداداً للرحيل حينما حضر العقيد *حسين ضرغام* رئيس المباحث؛ وطلب التحدث إليه بشأن ما قاله بالأمس فيما يتعلق بالحادث..

تركتهما *ليلى* بمفردهما وذهبت لإنهاء إجراءات خروج زوجها من المشفى ودفع حساب الغرفة الخاصة التي طلبتها له..

كان العقيد *حسين* رجلاً لبقاً؛ لين العريكة؛ تبدو عليه مخايل الذكاء جلية؛ فاستطاع – ببساطته في الحديث؛ وروحه المرحة – أن يكتسب ود *عمر الشوباني* بسهولة؛ مما جعله يروي له كل ما حدث دون أن يخفي عنه شيئاً..

استمع له *حسين* باهتمام ولم يتوقف أمام أي شيء غير منطقي في روايته حتى أنهاها كاملة ثم قال له:

- ألا ترى معي يا سيد عمر أن هناك عدة نقاط غير منطقية في روايتك.؟ على سبيل المثال المحاكمة؛ وتلك الفتاة التي تقول إنها حذرتك قبل أن تسقط فاقداً للوعي.؟ ثم لماذا يختارون إلقاءك في البئر تحديداً.؟ وإذا سلمنا بأن كل تلك الأحداث قد وقعت فعلاً يتبقى السؤال الأهم.. مَن الذي أخرجك من البئر؟! ثم نقلك من المنيا إلى بني سويف حيثما تم العثور عليك ملقىً في الطريق.؟

لم يجبه *عمر*؛ بل التزم الصمت تماماً وهو ينظر إليه نظرات حائرة..

فهو رغم يقينه أن ما قاله لهذا الضابط الآن قد حدث بالفعل..
وكيف لا وهو قد حدث له هو نفسه وليس لأحد غيره.! وهو أيضاً على يقين أنه لم يكن حلماً بدليل أنه الآن في المشفى وهناك أشياء مسروقة منه وكذلك تلك الإصابات التي لحقت به.! فكيف يكون كل هذا حلماً مر به.؟!
ولكن في نفس الوقت هناك العديد من الثغرات – والتي أثارها العقيد *حسين* بتساؤلاته – لا يجد لها تفسيراً؛ إلى جانب عدم منطقيتها..
شعر العقيد *حسين* بتلك الحالة النفسية التي يمر بها فقال له:

- سيد *عمر*.. أرى الحيرة جلية فوق وجهك؛ ولهذا لا أريد أن أثقل عليك أكثر من ذلك؛ ولكني أعدك أن آخذ روايتك هذه محل اعتبار وسوف نتحرى عن هذا المكان الذي ذكرته؛ وهؤلاء الأشخاص الذين تقول: إنهم سرقوك؛ بغض النظر طبعاً عن تلك النقاط غير المنطقية فيها..

انصرف العقيد *حسين* تاركاً *عمر* أشد حيرة عن ذي قبل؛ ولكنه لم يشأ أن يجادله مثلما فعل مع الضابط الذي قبله؛ فهو في احتياج شديد للهدوء لإعادة ترتيب أفكاره؛ ومحاولة استعادة بعض التفاصيل الأخرى التي قد تكون سقطت من ذاكرته؛ لذا فقد أكمل ارتداء ملابسه؛ وغادر المشفى عائداً إلى القاهرة بصحبة زوجته؛ تاركاً للأيام

القادمة مهمة كشف الغموض الذي اكتنف الأمر برمته؛ وأن تتمخض عما في جوفها من أحداث قد تقطع الشك باليقين..

***

(12)

لم تمر الأيام التالية مر الكرام على *عمر الشوباني*؛ فهو لم يستطع أن يستوعب بعد كل ما مر به من أحداث؛ فسقط صريع العديد من الأفكار المتناقضة؛ والمتصارعة بداخله..

ربما لم يشغل المال الذي فقده في تلك الرحلة الرهيبة حيزاً كبيراً من تفكيره المضطرب؛ فالمال – حتى وإن لم يعد – ففي النهاية يمكن تعويضه؛ أما تلك الهزة العنيفة التي هزت جوانب ذاته؛ فقد تركت شروخاً عميقةً بداخله لم يكن من السهل رأب صدعها..

فتارة يكون على يقين تام بأن كل ما حدث له لم يكن وهماً على الإطلاق حتى وإن كان فيه الكثير من الأحداث غير المنطقية.. فهو قد مر بالكثير من التجارب الكابوسية في أحلامه المزعجة؛ ولكن الشعور في هذه المرة كان مختلفاً تماماً؛ ويستطيع أن يميز ما بين المشاعر التي شعر بها في تلك الليلة؛ وبين المشاعر التي كان يشعرها في أحلامه؛ ولكنه كان يعود ليطرح على نفسه عشرات الأسئلة التي لم يجد لها أي جواب قط..

فمثلاً مَن تكون تلك الفتاة التي كانت بطلة معظم أحداث تلك الليلة.؟! من أين أتت.؟! وإلى أين ذهبت.؟! ولماذا حذرته من البداية.؟ ثم بعد ذلك وقفت تشاهدهم وهم يخرجون به لكي يلقوا به في البئر دون أن تمد له يد المساعدة بشكل أو بآخر؛ مكتفية بدموعها؛ ونظراتها الحزينة.؟!

من يكون هؤلاء الأوغاد الذين – وكما قالوا – كانوا ينتظرون قدومه لكي يقتصوا منه من أجل جريمة ارتكبها في الماضي.؟! وأي جريمة تلك التي ارتكبها دون أن يعلم؛ وتستحق الموت كعقوبة عليها.؟!

لماذا سيطر عليه هذا الشعور الغريب المستمر بأنه يعرف هذا المكان وتلك الفتاة.؟! هل لذلك الكابوس الذي لازمه لفترات طويلة علاقة بهذا الشعور.؟! أم أنها ظاهرة (ديجا فو)؛ أو كما يطلقون عليها (حدث من قبل)[2]والتي قرأ عنها كثيراً.؟!

---

[2] **- ظاهرة ديجا فو (Deja Vu) مصطلح باللغة الفرنسية يعني (حدث من قبل) أو تمت رؤيته من قبل.. فقد يذهب إنسان إلى مكان ما؛ أو تمر به أحداث ما أو يستمع إلى حوار لأول مرة؛ ثم يشعر شعوراً يقينياً أنه قد رأى هذا المكان من قبل؛ وأن نفس تلك الأحداث؛ وهذا الحوار قد مر به من قبل؛ رغم أنها تكون المرة الأولى التي يرى فيها هذا المكان؛ وتمر به تلك الأحداث..**

كل تلك علامات الاستفهام وغيرها التي لم يجد لها جواباً مقنعاً ومنطقياً.. مما جعله تارة أخرى يظن أنه ربما يكون قد أصيب بالجنون فعلاً..

أما زوجته *ليلى*؛ وتصرفاتها معه بعد هذا الحادث؛ فقد كانت لغزاً آخر يضاف إلى قائمة تلك الألغاز الغامضة التي تتصارع بداخله بحثاً عن تفسير..

ربما تكون قد أصبحت أكثر اهتماماً به؛ ورعاية له عما سبق؛ ولكنه اهتمام آلي بلا روح؛ وكأنها تؤدي واجباً مفروضاً عليها بقوة عقد الزواج الذي يربطها به..

لقد صارت أكثر صمتاً؛ على غير عادتها؛ فهي لم تتحدث كثيراً عن ذلك الحادث؛ وإن حدث وتكلمت عنه؛ تكون كلماتها محايدة؛ لا تحمل رأياً أو تفسيراً؛ أو حتى جدالاً؛ ولكنها استبدلت الكلمات بتلك النظرات الغريبة التي كانت تنظر إليه بها كثيراً..

لقد احتار كثيراً في تفسير تلك النظرات؛ وماذا تريد أن تقوله له بها.؟!

هل هي نظرات إشفاق.؟!

أم نظرات لومٍ وعتاب.؟!

أم أنها نظرات شك وريبة.؟!

فربما كانت تظن هي أيضاً أنه قد جُن. !؛ أو أن الشياطين قد مسته ولكنه في النهاية لم يصل إلى تفسير مقنع؛ وإن كان لديه شعور داخلي أنها – وكأي امرأة في مكانها – تري أن وراء كل ما حدث امرأة أخرى..

ولِم لا.؟ وهي لم تكف يوماً عن توجيه هذا الاتهام له؛ بأنه على علاقة بأخرى؛ وهي التي تجعله قليل الاهتمام بها؛ خاصة بعدما استسلمت لحقيقة أنها لن تستطيع الإنجاب أبداً..

لقد استولت عليه كل تلك الصراعات لتجعل منه إنسانا ميالاً للاكتئاب.. منطوياً على نفسه.. حتى إنه لم يعد يخرج من بيته.. ليس لعلة أو مرض؛ وإنما لأنه فقد شهيته للحياة..

ظل على تلك الحالة من المد والجذر لعدة أيام؛ حتى كان ذلك اليوم الذي تلقى فيه اتصالاً هاتفياً من العقيد *حسين ضرغام* يطلب منه الحضور إلى مديرية أمن بني سويف للأهمية..

الفصل السابع

جريمة لم تتم

(13)

لقد كاد *عمر* أن ينسى لقاءه السابق مع العقيد *حسين ضرغام* في المشفى؛ وأنه قد وعده أن يبحث في روايته بجدية؛ ففي حقيقة الأمر لم يشعر بحماس الرجل تجاه ما قصه عليه؛ وأن وعده له لم يكن إلا تطييب خاطر..

كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ظهراً عندما وصل إلى حجرة العقيد *حسين* الذي استقبله بترحاب شديد؛ مهللاً وممازحاً؛ وكأنهما صديقان منذ الطفولة..

مرت دقائق قبل أن يكف *حسين* عن الترحيب بـ *عمر*؛ الذي تقبله ببعض التحفظ؛ فهو لم يكن من هؤلاء الرجال الذين يألفون البشر بهذه السرعة؛ وفى النهاية سأله عن سبب استدعائه؛ فضحك *حسين* ضحكة مرحة؛ ثم قام من مكانه خلف المكتبة؛ واتجه ناحية خزانة حديدية ضخمة كانت في ركن الحجرة؛ وفتحها وهو يقول له بصوته الجهوري:

- لك عندي هدية بسيطة أرجو أن تتقبلها مني عن طيب خاطر..

ثم التفت إليه ووضع أمامه حقيبة جلدية سوداء كبيرة الحجم؛ ما إن رآها *عمر* حتى صاح بفرحة شديدة:

- ما هذا.؟! إنها حقيبتي المفقودة.؟ أين وجدتموها.؟! ومتى.؟! وكيف.؟!

ثم قام بفتح الحقيبة بلهفة؛ ونظر بداخلها ليجد أن المال موجودٌ؛ وكذلك كان هناك كيسٌ بلاستيكيٌّ شفافٌ وجد بداخله بعض متعلقاته الذهبية التي سُرقت منه..

شعر *عمر* بفرحة مضاعفة وأخذ لسانه يلهج بالشكر والثناء على رجال الشرطة الأذكياء الأقوياء؛ الذين تمكنوا من استعادة أمواله في تلك الفترة القصيرة..

مال العقيد *حسين* على مكتبه مقرباً وجهه من وجه *عمر* وهو يقول له بلهجة مسرحية مضحكة:

- يا سيد *عمر*.. أنت تتعامل مع أذكى جهاز شرطة في العالم..

ثم عاد ليطلق ضحكاته المرحة؛ التي سرعان ما قطعها لترتسم فوق وجهه جدية حقيقة؛ وفي لحظة لم يعد هذا الرجل المرح؛ وإنما صار عقيد الشرطة الجاد؛ حتى إن *عمر* نفسه تعجب من هذا التحول المفاجئ..

اعتدل *حسين* في جلسته وهو يقول بجدية:

- **بداية أحب أن تعرف أن تلك النقود التي بالحقيبة – وكما لابد وأنك لاحظت – تنقص مبلغاً ليس بالقليل؛ ولكن هذا كل ما وجدناه في حوزة اللص الذي قبضنا عليه؛ والذي أريدك أن تراه؛ لتخبرني إن كنت قد رأيته من قبل أم لا؟..**

ثم ضغط زر الجرس ليدخل ذلك الشرطي الذي كان واقفاً بالباب فيأمره بإحضار المتهم من غرفة الحجز؛ فانصرف الشرطي لتنفيذ الأمر؛ بينما ظل *عمر* شاخصاً ببصره إلى باب الحجرة بلهفة؛ منتظراً رؤية هذا اللص؛ حتى إنه لم يتنبه إلى *حسين* الذي كان يحدثه طالباً منه أن يراجع النقود والمتعلقات الخاصة به إلى حين حضور المتهم.. مرت عدة دقائق قبل أن يُطرق الباب مرة أخرى ويدخل منه الشرطي ممسكاً بهذا اللص الذي كان مكبلاً بالأصفاد الحديدية؛ وما إن رآه *عمر* حتى انتفض واقفاً وهو يشير إليه صارخاً:

- **إنه هو.. هو بعينه.. إنه *كارم* عامل المقهى الذي أخبرتك عنه يا سيادة العقيد..**

ثم تحرك من مكانه بسرعة في اتجاه اللص المكبل وهم بالإمساك بعنقه وهو يكيل له السباب بأقذع الألفاظ؛ لولا أن تحرك العقيد

***حسين* بسرعة من خلف مكتبه ليحول بينهما وأعاد *عمر* إلى مقعده مطالباً إياه بالهدوء وتمالك نفسه..**

كان *كارم* حين دخل الحجرة بصحبة الشرطي خافضاً عينيه إلى الأرض؛ فلم ينتبه لوجود *عمر*؛ ولكن ما إن صاح به الأخير وهو يحاول الإمساك برقبته فقد تحقق من ملامحه التي لم يرها إلا في الضوء الخافت؛ في المرة السابقة.. وعندها ارتد إلى الخلف مصعوقاً وهو يصرخ في رعب:

- كيف.. كيف.. إنك ميت.!! كيف أتيت إلى هنا.؟!

صاح به *حسين* أن يخرس وسأله بلهجة خشنة وهو يوجه له السباب:

- هل هذا هو الرجل الذي سرقتم أمواله؛ وحاولتم قتله.؟!

أخذ *كارم* يصيح وكأنه قد مسه مسٌ من الجنون:

- لا.. لا.. لم نقتله.. لقد كان ميتاً.. أقسم أنه كان ميتاً ولم نقتله.. لقد كان ميتاً.. فكيف عاد إلى الحياة.؟!

صاح به *حسين* أن يخرس ويبتلع لسانه؛ ثم أمر الشرطي بإعادته إلى حجرة الحجز؛ ثم عاد ليحاول تهدئة *عمر* الذي كان قد أشعل لفافة تبغه الثانية خلال دقائق؛ وكان ينفث دخانها بعصبية واضحة..

❋ ❋ ❋

(14)

بدأ *عمر* يستعيد هدوءه واستأذن العقيد *حسين* في قدح من القهوة؛ فأمر له به؛ فقال:

- أرأيت الآن أنني لم أكن متوهماً.؟ هل صدقت الآن روايتي لما حدث لي.؟

ابتسم *حسين* ابتسامة غامضة وقال له بهدوء:

- أنا لم أكذبك يا سيد *عمر*؛ ولكني كذلك لم آخذ روايتك على علاتها؛ ولكي أكون صريحاً معك فلك أن تعلم أن ما قلته أنت عن الحادث لم يكن وحده الذي حركني لكي أقبض على اللص؛ ربما تكون حددت لي الاتجاه الذي أسير فيه.! ولكن هناك أسباب أخرى جعلتني أبحث في الحادث على أنه جريمة سرقة وشروع في قتل وليست مجرد حادث طريق فحسب..

لم يرد *عمر* على كلامه وانتظره كي يكمل حديثه فأردف قائلاً:

- في البداية طبعاً كانت روايتك للحادث مليئة بالثغرات التي قد تجعل منها قصة خيالية صالحة لأحد أفلام السينما المثيرة؛ ولم يكن هناك ما يجعلني أستمع إليها إلا إصرارك الشديد عليه؛ هذا بالطبع بخلاف أنك كنت تحدد الأماكن بدقة وكذلك الأشخاص

والأسماء؛ ولكني في النهاية لم أكن مقتنعاً إلى أن قرأت تقرير فحص سيارتك؛ وشاهدتها بنفسي أيضاً..

نظر إليه متعجباً ولكنه لم يقاطعه فأكمل *حسين* كلامه:

- كانت نتيجة فحص سيارتك أنه وجد بها انبعاج شديد في الخلفية؛ وتحطم لأحد المصابيح؛ بينما كان الآخر سليماً؛ وهذا معناه أن السيارة دفعت دفعاً عن طريق سيارة أخرى – يرجح أنها ذات مقدمة عالية كأن تكون حافلة؛ أو سيارة نقل كبيرة – ولم يكن اصطداماً من الخلف كما ظننا في البداية؛ وإلا لكانت الخلفية قد تحطمت تماماً.. ويؤكد ذلك أن الحاجز الحجري في المنطقة التي سقطت فيها السيارة محطم لمسافة عدة أمتار؛ وهذا يدل على أنه قد تم اختيار المنطقة بعناية؛ ولم تأتِ مصادفة..
- وماذا يعني هذا الكلام يا سيادة العقيد.؟
- يعني أنه لم يكن حادثاً عرضياً؛ وإنما كانت جريمة مدبرة.. فلقد تم دفع سيارتك – وهي متوقفة – بواسطة سيارة أخرى أكبر وأقوى حتى انزلقت إلى النهر من خلال هذا الجزء المحطم من الحاجز الحجري؛ لكي يبدو الأمر وكأنه حادث سير..

نظر إليه *عمر* نظرة ظفر وقال له محتداً:

- **لقد قلت لكم منذ البداية إنه لم يكن حادث سيارة أبداً؛ ولكني لم أجد مَن يصدقني؛ أما ما قلته سيادتك الآن يؤكد صدق روايتي؛ فهذا المجرم الذي بين أيديكم دليلٌ على صدقي وأنني لم أكن واهماً؛ أو أنني كنت في حالة هذيان..**

امتعض *حسين* من تلك الطريقة التي يتحدث بها؛ ولم تعجبه على الإطلاق؛ ولذا فقد حدثه بلهجة حازمة:

- **من فضلك يا سيد *عمر* لا داعي لهذه الحدة؛ والتزم الهدوء حتى تستطيع أن تستوعب كلامي جيداً؛ فربما كان ما قلته الآن يؤكد جزءاً من روايتك ولكنه لا يؤكدها كلها.. فهو يؤكد بالفعل أنك توقفت عند تلك القرية (أبو مندور) وأنك ذهبت إلى هذا المقهى وجلست فيه؛ وأنك تعرضت للسرقة ومحاولة القتل؛ ولكن.. ليس بالطريقة التي وصفتها أنت..**

أجابه *عمر* ممتعضاً:

- **فبماذا تفسر إذن أن الجريمة حدثت في قرية قرب محافظة المنيا وبعد ذلك تقول لي: إن السيارة سقطت في النهر عند محافظة بني سويف.؟**
- **لست أنا من سيفسر لك هذا؛ وإنما اعترافات المتهم هي التي فسرت.. لقد كنت أريدك أن تسمعها منه هو نفسه؛ ولكن الطريقة**

العصبية التي تعاملت بها جعلتني أنهي المواجهة بينكما.. على كل حال يجب أن تعلم أن الجريمة لم تكن مدبرة؛ ولكن ما حدث وقتها جعلها تحدث؛ فأنت حين تشاجرت مع ذلك المدعو *كارم* بشأن تلك الفتاة التي ادعيت أنك رأيتها...

قاطعه *عمر* قائلاً له بحدة:

- **ادعيت.؟ ماذا تقصد بقولك إني ادعيت وجود فتاة.؟ لقد كانت هناك فتاة بالفعل؛ وتلك الفتاة طلبت مني الانصراف من المكان فوراً وكان ذلك على سبيل التحذير لي؛ ولقد رأيتها مرة ثانية وثالثة..**

رد عليه *حسين* بحدة وقد نفذ صبره:

- **للمرة الثالثة أقول لك اهدأ يا سيد *عمر*؛ ولا تقاطعني حتى أنهي كلامي.. لم تكن هناك أي فتاة؛ وهذا ما أكد عليه كل الشهود.. لنتحدث فيما بعد بشأنها إذن..**

كظم *عمر* غيظه ولم يرد عليه فأردف:

- **لقد قلت لك: إنك حينما سقطت واصطدم رأسك بحافة المائدة وفقدت وعيك؛ حاولوا إفاقتك ولكن يبدو أن الصدمة كانت شديدة؛ إلى جانب أنك – كما قلت لي – كنت مجهداً بشدة؛ ولهذا كانت الإغماءة التي سقطت فيها شديدة؛ فظنوا أنك**

قد لفظت أنفاسك الأخيرة – هذا بالطبع ما قاله المتهم – وفى تلك اللحظة؛ وعندما فتحوا الحقيبة ورأوا ما بها من مال؛ وسوس لهم الشيطان بارتكاب جريمة السرقة.. وهنا اقترح المتهم الثاني الهارب والذي يدعى *سيد طرزان* أن يضعوك في سيارتك ثم يقودها أحدهم إلى حيث الترعة المجاورة ويلقوك فيها؛ وأنت داخل السيارة.. ولكنهم خشوا أن تحوم حولهم الشبهات فكان اقتراح *كارم* أن يقود هو سيارتك بينما يقود *سيد طرزان* السيارة النقل التي يعمل عليها تباعاً؛ والتي كان قائدها ذلك الرجل الضخم الذي يدعى *عتمان* – وكان هذا الأخير قد سقط في هوة النعاس العميق نتيجة هذا الكم الكبير من المخدر التي دخنه فلم يشعر بشيء مما حدث – على أن يبتعدوا تماماً عن قريتهم؛ وليلقوا بك داخل سيارتك في أي مكان آخر لا يكون قريب منهم فيثير الشبهات حولهم؛ خاصة لو أن أحداً كان رآك أثناء دخولك إلى هذا المقهى..

توقف العقيد *حسين* قليلاً ليلتقط أنفاسه؛ بينما ظل *عمر* صامتاً يتابع ما يقوله باهتمام فأكمل:

- وبالفعل نفذوا ما اتفقوا عليه؛ وإن كان ثالثهم؛ وهو العامل الثاني في المقهى المدعو *إسماعيل*؛ فقد خاف وتراجع عن مشاركتهم؛ بل إنه ترك المقهى ورحل حتى لا يطاله أي اتهام فيما بعد؛ وقام كل من المتهمين الأول والثاني بتنفيذ هذا السيناريو الذي قلته لك من قبل..

خيم الصمت عليهما بعدما أنهى العقيد *حسين* حديثه؛ وبعد عدة دقائق قطع *عمر* هذا الصمت بقوله:

- ولماذا لم تضع في اعتبارك أن يكون *كارم* هذا كاذباً في سرد تفاصيل ارتكاب جريمتهم.؟

رد عليه العقيد *حسين* بحدة قائلاً:

- ولماذا يكذب من وجهة نظرك أنت يا سيد *عمر*.؟ نحن أمامنا متهم اعترف بالتفصيل بجريمته؛ وجاء اعترافه مطابقاً لكل المعطيات التي كانت بين أيدينا؛ وكذلك ما يتفق مع المنطق والعقل فلماذا إذن أفترض كذبه.؟ هل لمجرد أنه لم يتوافق اعترافه مع ما جاء في روايتك أنت التي تجافي تماماً العقل والمنطق.؟

ألقى كلماته الأخيرة وكأنه يعلن نهاية المقابلة؛ فنهض *عمر* وصافحه؛ فضغط *حسين* على كفه بشدة وقال له ناصحاً:

- **أنا رجل شرطة يا سيد *عمر*؛ ورجل الشرطة لا يتعامل إلا مع الأشياء المادية الملموسة فيما يتعلق ببحثه في أي جريمة تعرض عليه؛ أما ما دون ذلك فهو ليس من اختصاص رجل الشرطة؛ ولهذا فأنا أنصحك بأن تزور مختصاً في تلك الأمور؛ فلعلك تجد جواباً لتلك الأسئلة التي لم تجد لها جواب هنا..**

وهكذا خرج *عمر* من عند العقيد *حسين ضرغام* دون أن يجد جواباً لكل تلك الأسئلة التي كانت؛ ولا تزال تعصف برأسه بلا هوادة..

وإن كان قد عاد إلى بيته محملاً بجزءٍ مما فقد من مال؛ ولكنه أيضاً عاد محملاً بالمزيد من علامات الاستفهام..

الفصل الثامن

زيارة بلا موعد

زيارة بلا موعد..

---

(15)

كانت زيارة الدكتور *عز الدين ثروت* لشركة *عمر الشوباني* بلا ترتيب أو موعد سابق؛ ولهذا كان الأخير مندهشاً عندما أستقبله ظهر ذلك اليوم؛ متسائلاً بينه وبين نفسه عن سر تلك الزيارة الغريبة..

وبرغم أن *عمر* كان يعرف الدكتور *ثروت* جيداً؛ فلقد كان يمت بصلة قرابة لزوجته *ليلى*؛ إلا أن العلاقة بينهما اقتصرت على اللقاء في المناسبات العائلية التي قد تجمعهما فحسب؛ ولم يحدث أن تبادلا الزيارات من قبل..

كان الدكتور *عز الدين ثروت* رجلاً في منتصف العقد السادس من العمر؛ يعمل أستاذاً للحضارات القديمة في الجامعة الأمريكية؛ وله العديد من المؤلفات القيمة التي لاقت رواجاً شديداً؛ إلى جانب اهتماماته بما يسمونه علوم الميتافيزيقيا؛ أو تلك العلوم التي يطلقون عليها ما وراء الطبيعة..

كان أشيب الشعر؛ تبدو على ملامحه سيمات الأرستقراطية والتي تبدو ظاهرة أيضاً في ملبسه وطريقته في الحديث والتعامل مع من حوله فلقد كان حلو المعشر؛ ينتقي كلماته بعناية؛ يتمتع بذكاء حاد؛ ونشاط وحيوية شاب في الثلاثينات من العمر..

أخذ يتحدث إلى *عمر* في شتى المواضيع التي أبرزت مدى ثقافته وسعة اطلاعه؛ ولكنه لم يتطرق إلى سبب تلك الزيارة حتى قطع حديثه فجأة وقال له:

- يبدو أنك مندهشٌ بسبب تلك الزيارة المفاجئة؛ ومتشوقٌ لمعرفة سببها؛ ولهذا سوف أتطرق إلى الموضوع مباشرة؛ دون مقدمات..

هز *عمر* رأسه بما يعني أنه متشوق فعلاً لمعرفة سبب الزيارة فأكمل *ثروت* كلامه:

- لابد أنك تعرف عني أنى أهتم بدراسة بعض القضايا الغامضة والحالات التي قد لا تجد لها تفسيراً منطقياً في بعض الجرائم.. وهذا أوجد علاقة وثيقة بيني وبين بعض رجال الشرطة والقانون ومن بين هؤلاء الذين كانت لي علاقة وثيقة بهم هو العقيد *حسين ضرغام* بالطبع أنت تعرفه؛ فقد التقيتما من قبل؛ ولقد أخبرني بقصتك الغريبة التي قصصتها عليه بشأن الحادث الذي وقع لك وقد تفضل أيضاً بأن سمح لي بقراءة الملف كاملاً..

أشعل *ثروت* غليونه بهدوء ثم أكمل قائلا:

- وبرغم أن رأي العقيد *حسين ضرغام* أن كل ما رويته له لم يكن سوى أوهام دارت بمخيلتك نتيجة الظروف التي تعرضت لها في تلك الليلة؛ إلا أنني عندما قرأت الملف جيداً فقد وجدت عدة ملاحظات توقفت عندها كثيراً؛ ولهذا سمحت لنفسي بتلك الزيارة لأستفسر منك عن هذه النقاط؛ فربما قدرنا سوياً أن نجد تفسيراً لها؛ ولبعض الأحداث غير المنطقية التي مرت بك في تلك الليلة..

لم يفاجأ *عمر* كثيراً؛ فقد كان لديه شعور قوي منذ البداية أن هذه الزيارة لها علاقة بالحادث الذي وقع له؛ ولهذا ابتسم قائلاً:

- أنت على الرحب والسعة دائماً يا دكتور*ثروت*؛ فمثلك لا يحتاج لوجود سبب لكي يشرفني بزيارته في أي وقت..

ثم تنحنح قليلاً وقال له بلهجة حاول ألا تكون فظة:

- ولكن اسمح لي سيدي ألا نتحدث في هذا الأمر؛ فأنا الآن أحاول أن أمسح تلك الحادثة من ذاكرتي نهائياً؛ وأن أقنع نفسي أن ما حدث كان مجرد وهم عشته نتيجة الحالة النفسية والبدنية التي كنت عليها ليلتها؛ أو ربما كان كابوساً عشت بين أنيابه؛ كتلك الكوابيس التي تراودني منذ سنوات..

جاءت كلمات *عمر* غير مقنعة أبداً حتى له هو شخصياً؛ فهو لم ينس أبداً ما حدث؛ رغم مرور ما يقرب من الشهر منذ أن تقابل مع العقيد *حسين ضرغام* وقت أن واجهه باللص الذي سرقه؛ وشرح له الطريقة التي تمت بها السرقة والشروع في قتله؛ والتي لا تتفق في جوانب عدة مع هذا الذي يوقن أنه حدث له؛ وعاشه لحظة بلحظة..

وأيضاً لم يقتنع دكتور *ثروت* بما قاله *عمر* ولهذا ابتسم وقال له بلهجة ودية:

- صدقني يا *عمر* أنا لم آتِ إلى هنا لكي أثير ذكريات مؤلمة؛ هذا بالطبع إن كنت نسيتها فعلاً فأنا أشك في ذلك.. ولكن لا بد أيضاً أن أنبهك إلى أمر آخر قد يكون غائباً عنك؛ فعليك أن تدرك أن تلك الحالة التي تعيشها منذ فترة طويلة لا تترك آثارها عليك أنت وحدك وإنما تؤثر أيضاً في كل من حولك.. زوجتك مثلاً لا بد أن تتأثر بها بشدة؛ وكذلك عملك؛ وكل من هو قريب منك..

شعر *عمر* بغصة في حلقه عندما جاء ذكر زوجته في الحوار وقال له محاولاً كبت غضبه:

- ماذا تقصد بكلامك هذا.؟ هل أتتك زوجتي لتشكوني لك.؟
- من فضلك يا *عمر*؛ لا داعي لأخذ الأمور بتلك الحساسية المفرطة؛ فزوجتك لم تأتِ لكي تشكو منك؛ وإنما حدثتني بشأنك

من باب خوفها عليك؛ وحبها لك؛ كما أنها لم تخطئ عندما تحدثت إليّ؛ فأنت تعلم تماماً أنها تعتبرني في مقام والدها وأنا أضعها في مكانة ابنتي التي هي في مثل عمرها تقريباً؛ وكذلك لست أنا ذلك الرجل الذي يتدخل فيما لا يعنيه.. ولكني هنا اليوم لصالحك وصالحها ولصالحي أنا أيضاً.. فحالتك هذه أثارت فضولي العلمي بشدة؛ ورأيت أنني سوف أضيف لنفسي خبرة جديدة ربما لم تمر عليّ من قبل..

أشاح *عمر* بيده وهو ما زال غاضباً مما فعلته زوجته وقال له:

- إنها لا ترى في كل هذا الموضوع سوى أن هناك امرأة أخرى وأنني اخترعت تلك القصة لكي أخفي الحقيقة التي هي – وعلى حسب رؤيتها الساذجة – أنني كنت بصحبة امرأة أخرى ثم ضبطوني معها في وضع مخل؛ ففعلوا بي ما فعلوا..

ضحك *ثروت* ملء شدقيه وقال:

- هكذا هن النساء دائماً يا صديقي؛ فلا تعول على ما يقلن؛ ثم لا تنس أنك أنت من قال: إن هناك امرأة في أحداث روايتك؛ ولكني أعود فأقول لك: إن ما أتى بي إلى هنا ليس

ما تظنه زوجتك.. صحيح أنها قد قصت علىَّ كل شيء؛ بما فيه شكوكها تلك؛ وكذلك هذا الكابوس الذي يلازمك منذ فترة طويلة؛ وربما تكون قد اشتكت من تبدل أحوالك منذ أن بدأت ترى هذا الكابوس؛ وزادت الحالة إلى الأسوأ منذ وقوع هذا الحادث.. ولكن كما قلت لك إنني هنا لصالح الجميع بما فيهم أنا..

رد عليه ممتعضاً:

- **أفهم من كلامك أنك على دراية بكل تفاصيل حياتي مؤخراً.؟ وأنني أصبحت اليوم مادة علمية تبحث فيها لكي تخرج منها بتجربة شخصية.؟ ولكن.. من قال لك أنني سأسمح بذلك.؟!**

****

(16)

صمت *ثروت* وقد بدأ يشعر بالحرج لهذا الرد من *عمر*.. لقد كانت *ليلى* على حق عندما حذرته من عناد زوجها؛ هذا بخلاف رفضه التام للحديث عما يحدث له مع طبيب نفسي؛ وأنه لا يرى فيهم غير أنهم ثلة من المهرجين والنصابين.. ولكنه لم ييأس بعد؛ ولذا قال له محاولاً أن يبتلع امتعاضه من تلك الطريقة الحادة التي يحدثه بها:

- ما زلت يا *عمر* مصراً على تعقيد الأمر عليّ وعلى نفسك.. لم يقل أحد إنك صرت مادة للبحث؛ ولكن لتتخيل مثلاً أن هناك رجلاً أصيب بمرضٍ نادرٍ؛ ثم ذهب إلى الطبيب للعلاج؛ فهل لو أضاف هذا الطبيب خبرة هذا المرض النادر إلى خبراته؛ فهل سيكون المريض في هذه الحالة قد أصبح حقل تجارب له.؟ أم أنه يمكن القول إن الاثنين استفادا.؟ فالمريض وجد من يعالجه؛ والطبيب أضاف إلى خبراته ما هو جديد عليها..

بدأ *عمر* يهدأ قليلاً؛ وشعر بالخجل لتلك الطريقة التي تحدث بها إلى الدكتور *ثروت* واعتذر له؛ ثم قال:

- إذن فسوف أتحدث إليك على أساس أنك ملم بكل التفاصيل الدقيقة حول هذا الموضوع؛ سواء عن طريق *ليلى*؛ أو عن طريق العقيد *حسين ضرغام*..

ثم سأله بخبث:

- ولكن لتقل لي أولاً ما هو تقييمك للموضوع بأكمله.؟ هل أنت تصدق روايتي.؟ أم أنك مثل الجميع تراني قد فقدت عقلي؛ وأنني أهذي.؟!

أدرك *ثروت* أنه يريد أن يتحسس هدفه من تلك الزيارة؛ وإلى أي الأراء يميل؛ قبل أن يتحدث في شيء فأجابه مبتسماً:

- من ناحيتي فأنا لا أراك مجنوناً أو هاذياً؛ فأنا أصدق أنك قد حكيت ما رأيته وعشته؛ ولكني لست مقتنعاً بأنه قد حدث فعلاً..

نظر إليه *عمر* متعجباً؛ فأكمل قائلاً:

- لا داعي للعجب يا صديقي؛ فأنا أصدق ما قلته أنت؛ ولكن ليس معني ذلك أنه قد حدث؛ فربما كان كابوساً آخر مر بك حين سقطت في غيبوبتك عندما وقعت فوق الأرض داخل المقهى؛ وربما لم تكن غيبوبتك تلك بالعمق الكافي مما جعلك تشعر ببعض ما حولك؛ وهنا اختلط حلمك بما يحدث في الواقع..

قال له *عمر* حائراً:

- ما زلت لا أفهم ماذا تقصد بالضبط.؟ فماذا تقصد بهذا التداخل ما بين الواقع والحلم.؟

جاوبه *ثروت* بهدوء:

- سأضرب لك مثالاً يحدث كثيراً.. هل جربت مرة أن تمتلئ مثانتك وأنت غارق في النوم.؟ وتشعر بآلام حادة تجعلك نصف متيقظ.؟ في هذه الحالة قد ترى حلماً يدور كله حول أنك تسعي لإفراغ مثانتك لكي ترتاح من هذه الآلام؛ وقد تنتقل ما بين العديد من الأحلام تدور كلها حول هذا الألم مهما اختلفت الأحداث في الحلم؛ وأحياناً أخرى قد يأخذ الألم هذا شكلاً رمزياً في حلمك؛ كأن تتخيل مثلاً أنك تعاني من آلام مرض عضال؛ أو أن هناك عدواً ما يطعنك بآلة حادة.. خلاصة القول هنا أن الواقع – وهو امتلاء مثانتك – اختلط بالحلم الذي تعيشه مهما كانت أحداثه؛ وأصبح جزءاً من الخيال الذي تراه في الحلم؛ حتى تستيقظ تماماً وتقوم لإفراغ مثانتك..

هز *عمر* رأسه دلالة على أنه فهم ما يعنيه الدكتور *ثروت* وقال له:

- إذن فأنت تقصد أن ما حدث كان نصفه حلم وخيال والنصف الآخر حقيقة وواقع.؟

- **ليس بهذا المعنى بالضبط؛ وإن كان قريباً منه.. فأنت لم تكن في غيبوبة كاملة؛ وإنما كان هناك جزء ما من عقلك يعي ويشعر بما حولك؛ ولكنه في نفس الوقت لم يكن واعياً بشكل كامل ففسر ما يحدث في الواقع بصورة خيالية..**

التقط أنفاسه قليلاً ثم عاد ليكمل:

فمثلاً عندما كانوا يتداولون بشأنك وماذا يفعلون بك؛ ترجمه هذا الجزء نصف الواعي من عقلك على أنهم يحاكمونك؛ وكانت تلك المحاكمة التي رأيتها في حلمك؛ والتي لم يكن لها أي وجود في الواقع؛ وعندما حملوك ووضعوك في سيارتك؛ كان أن رأيت في حلمك أنهم يحملونك في طريقهم إلى البئر؛ ثم عندما دفعوا السيارة إلى النهر؛ وبدأ الماء يتسرب إلى داخل السيارة وشعرت ببرودته؛ فكان التفسير داخل أحداث حلمك أنهم ألقوا بك في البئر الممتلئة بالماء.. أي أننا أمام حالة واضحة من حالات أحلام المنبه؛ عندما يتداخل الواقع مع الحلم؛ مثلما يحدث تماماً عندما تسمع صوت رنين المنبه أو الهاتف أثناء نومك؛ فيجعلك هذا الصوت نصف نائم؛ ويتداخل هذا الصوت في حلمك وتشعر وقتها أن هذا الواقع جزء من حلمك؛ أو

العكس؛ فقد تشعر أن الحلم هو واقع وليس حلم.. وهنا يختلط الواقع بالحلم ليكون ما أسماه " سيجموند فرويد " بأحلام المنبه..[3]

ظل منتبهاً تماماً وهو يستمع إليه؛ وعندما أنهى الدكتور *ثروت* كلامه حل الصمت بينهما؛ حتى قطعه *عمر* أخيراً قائلاً:

- ربما كان كل ما قلته مقبولاً من الناحية النظرية؛ وربما كان يفسر الكثير مما حدث؛ ولكن يظل هناك سؤال يلح عليّ الآن.. لماذا هذه التفاصيل تحديداً هي التي ترجمها عقلي نصف الواعي.! خاصة إذا كانت تتشابه بشكل كبير مع ذلك الكابوس الشنيع الذي لازمني لفترات طويلة وما زال.؟ هل كان هذا الكابوس رؤية مستقبلية لما سيحدث لي في تلك الليلة؛ ولكني لم أنتبه إلى هذا التحذير إلا عندما دارت تلك الأحداث.؟ هل لديك تفسير لهذا.؟

هز *ثروت* رأسه نافياً ثم قال:

- في حقيقة الأمر يا صديقي أن العقل البشري كان ولا يزال وسيظل لغزاً لا يملك مفاتيح فك شفرته إلا الله – سبحانه وتعالى –.. فبرغم هذا التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل ما زالت عقول

---

[3]- عندما يختلط رنين المنبه؛ أو الهاتف في الواقع؛ ويدخل في أحداث الحلم؛ وكأنه جزء منه.. هذا ما أسماه " فرويد " باسم أحلام المنبه.. بالطبع ينطبق هذا على أي صوت أو حركة في الواقع وتختلط بالحلم.

العلماء عاجزة عن إيجاد تفسيرٍ منطقيٍّ لما يحدث للإنسان أثناء نومه.؟ ولا كيف تحدث الأحلام.؟ ولا ماذا يحدث لجسد الإنسان حين يعيش تفاصيل الحلم.؟ كلها تخمينات تستند إلى بعض الدراسات النفسية التي هي بدورها ستظل مجرد نظريات تحتاج هي نفسها للتأكيد.. ولكن يظل عندي يقيناً أن الأحلام لا تنبئ عن المستقبل؛ وإنما هي مجرد تعبير عن مكنونات داخل العقل الباطن للإنسان؛ أما الرؤى التي قد تنبئ عن المستقبل؛ فتلك هبة اختص به الله – سبحانه وتعالى – الأنبياء والرسل وبعض أوليائه الصالحين...

قاطعه *عمر* قائلاً:

- **أنا أختلف معك في تلك الجزئية سيدي.. فهل تنكر أن هناك الكثير من الأحلام التي نراها؛ ثم بعد فترة طالت أو قصرت نجد أن تلك الأحلام قد تحققت تماماً.؟ ثم إنك تقول إن الرؤي المستقبلية هبة وهبها الله – سبحانه وتعالى – لأنبيائه ورسله وأوليائه الصالحين.! فهل كان ملك مصر في قصة يوسف عليه السلام نبياً أو ولياً من أولياء الله عندما رأى رؤياه ثم تحققت بعد أن فسرها يوسف عليه السلام.؟ نفس الأمر بالنسبة لصاحبي سجنه**

ورؤياهما اللتان تحققتا كما فسرها يوسف أيضا.؟ فهل كانا هما أيضاً من أولياء الله الصالحين.؟!

ابتسم *ثروت* ثم قال:

- وبرغم أننا بهذا النقاش قد خرجنا عن موضوعنا الذي جئت من أجله؛ إلا أنني سوف أجيبك على تساؤلاتك تلك حتى لا تظن أنني أتهرب من الجواب..

ثم أطلق ضحكة مرحة وأكمل:

- وحتى لا تظن أيضاً أنك قد انتصرت عليّ في هذا النقاش..

أطلق *عمر* ضحكة بدوره أزالت عنه بعض التوتر الذي لازمه منذ قدوم الدكتور *ثروت* الذي أكمل حديثه قائلاً:

- أما فيما يتعلق بتلك الأحلام التي تقول إنها قد تتحقق في الواقع فهذا يؤكد ما قلته أنا عن أن الأحلام ماهي إلا انعكاس لمكنون ما داخل العقل الباطن للإنسان؛ فانت لو بحثت في أي حلمٍ يتعلق بمسألة ما ثم وجدت أنه قد تحقق؛ فستجد أن تلك المسألة التي حلمت به كانت تشغل عقلك الواعي بشكل مستمر وعميق أثناء يقظتك؛ وعندما تنام يظل عقلك الباطن محتفظاً بهذا التفكير فيها ويفرزه في شكل حلم يتناسب مع الطريقة التي تفكر بها في هذه المسالة.. فمثلاً لو أن هناك طالباً أدى اختباراته بشكل سيء

فسيظل يفكر في نتيجة الاختبارات طوال فترة انتظارها؛ ربما كان في الظاهر يتمني النجاح؛ ولكن المختزن في عقله الباطن أنه لم يجب تلك الإجابات الكفيلة بنجاحه؛ وبالتالي يظل يرى في أحلامه أنه قد رسب في الامتحان؛ وعندما تظهر النتيجة ويجد نفسه قد رسب؛ سيقول إنه رأى في أحلامه تلك النتيجة مسبقاً؛ وأن الأحلام قد أنبأته بالنتيجة قبل أن تظهر.. وهناك أمثلة كثيرة؛ ولكن الخلاصة أن ما يقلقك في يقظتك أو يشغل تفكيرك بشكل مكثف؛ قد يترجمه لك العقل الباطن في شكل أحلام؛ أو حتى كوابيس..

صمت *ثروت* قليلاً ثم عاد ليقول:

- أما عن قصة يوسف عليه السلام مع الأحلام فلا بد أن نتلمس حكمة الله – سبحانه وتعالى – فيها؛ فربما لم يكن الملك من الأنبياء أو الصالحين؛ ومن المؤكد أن رفيقي السجن لم يكونا كذلك؛ ولكن السؤال يكون لماذا أراهم الله تلك الرؤى المستقبلية.؟ والتي لولا تفسير يوسف – عليه السلام – لها ما كانت لتذكر.! وهنا تبدو لنا حكمة الله – سبحانه وتعالى –.. فلولا تلك الرؤى ما كان ليوسف أن يخرج من السجن أبداً؛ وما

كان ليبقى على خزائن مصر كلها؛ وما كان ليمَكن له في الأرض حتى يصبح عزيز مصر..

صمت *ثروت* قليلاً ليرى وقع كلماته على *عمر* وعندما وجده منتبهاً لما يقول أكمل قائلاً:

- فماذا لو أن يوسف – عليه السلام – هو من رأى في نومه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف؛ وسبع سنبلات خضر والأُخَر اليابسات.؟ وأول لنفسه تلك الرؤية كما أولها للملك.؟ فهل كان سيخرج من السجن.؟ هل كان سيسمع به الملك فيستخلصه لنفسه ويجعله على خزائن مصر.؟ ولو لم يرَ رفيق السجن ذلك الساقي رؤياه؛ وقصها على يوسف فأولها له؛ فهل كان سيذكره عند الملك عندما خرج من السجن وعمل ساقياً للمك.؟ إذن فلقد صبت تلك الرؤى في صالح يوسف – عليه السلام –؛ وما كان ليريها الله لهؤلاء إلا لحكمته – سبحانه وتعالى –..[4]

هز *عمر* رأسه إعجابا بتحليل الدكتور *ثروت* ولكنه ظل على حيرته؛ فعاد ليقول له:

- وماذا عن هذا الحلم المتكرر الذي ما زلت أراه.؟

---

[4] - هذا التفسير هو اجتهاد شخصي من المؤلف.. والله أعلى وأعلم.

رد عليه *ثروت* قائلاً بتؤدة:

- **كما قلت لك منذ قليل؛ فالأحلام إما أن تكون استدعاء لبعض الأحداث التي مرت بنا خلال اليوم، أو الأشياء التي تشغل بالنا قبل النوم مباشرة؛ وإما أن تكون أعمق وتتضمن الأفكار والرغبات والصراعات الكامنة في العقل الباطن..**

ثم نظر إليه نظرة عميقة وهو يقول:

- **أما مرضى الفصام فتظهر في أحلامهم الأشباح والأصوات المخيفة التي تطاردهم أيضاً في حالة اليقظة أحياناً.. أما تكرار الحلم المخيف وبنفس التفاصيل في كل مرة فهذا يعني أن العقل الباطن يختزن تجربة رهيبة حدثت في الماضي؛ أو جريمة ما لم تكتشف؛ وتناساها العقل الواعي؛ أو نسيها بالفعل وأسقطها في سراديب العقل الباطن لكي يتخلص منها ومن مطاردتها له في يقظته؛ ولكنها تظل تطارده أثناء نومه؛ وتظل تطرق باب الذاكرة بقوة كي تتخلص من محبسها ويظهر هذا في صورة حلم مزعج متكرر؛ بتفاصيل متكررة ترمز في العادة – بشكل أو بآخر – لتلك التجربة الأليمة..**

ألقى *ثروت* كلماته الأخيرة وهو يضغط على حروفها؛ موجهاً نظرات عميقة إلى *عمر* وكأنه يقول له؛ إنني أعنيك بكل ما أقول..

كان *عمر* يدرك تماماً أنه معنيٌّ بهذه الكلمات؛ ولهذا أصابه الانزعاج عند سماعه هذا التحليل المسهب لحالته؛ فصاح به:

- هل تقصد أنني مريض بالفصام.؟ وأنني ارتكبت جريمة ما في الماضي وهي التي تلح عليّ الآن متمثلة في هذا الكابوس البشع.؟

ومع انفعال *عمر* أدرك *ثروت* أنه قد أصاب الهدف؛ وأنه لن يمر وقت طويل حتى تنفك عقدة لسانه؛ ويفصح عن مكنون نفسه التي يظن أنها محملة بعبء ثقيل ناء به كاهله؛ وأوشكت نفسه الحبلى بإثمٍ ما أن تضع حملها..

أشار له بكفه كي يهدأ وقال له بهدوء شديد كي يمتز أبخرة غضبه قبل أن تتكاثف وتنفجر:

- لا أرى أي داعٍ لانزعاجك يا *عمر*؛ فمعظم البشر مصابون بالفصام وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة؛ وكلنا يحمل بداخله بذرة المرض النفسي؛ ولكن تلك البذرة لن تزهر إلا إذا وجدت الأرض الخصبة التي تفجر برعمها..

لم يهدأ *عمر* وإنما زاد انفعاله وقال له بحدة:

- ربما لا أكون نبياً؛ ولست ملاكاً بالتأكيد.. ولكني لم أرتكب أي جرم قد يكون دفن بين أروقة وسراديب العقل الباطن كما تقول..

ابتسم *ثروت* ابتسامة غامضة وقال له:

- هذا ما يدعيه عقلك الواعي؛ وقد يكون حقيقياً بالنسبة له؛ ولكن يبدو أن عقلك الباطن له رأي مختلف..

صاح به *عمر* بسخرية لاذعة:

- يبدو أنك تعرف مكنون عقلي أكثر مني يا دكتور *ثروت*.!

أهمل *ثروت* الرد على كلماته الأخيرة؛ ونظر في عينيه نظرة مباشرة؛ وقال له بهدوء ملتهب:

- فماذا إذن عن تلك الفتاة التي قلت إنك قد قابلتها في الطريق؛ وإنها حذرتك وطلبت منك الرحيل من هذا المقهى بطريقة أوحت لك أنك مُعرض لخطر وشيك.؟ لماذا لم تحدثني عنها الآن؟.! رغم أنك ذكرتها عدة مرات في محاضر الشرطة.؟

ارتد *عمر* بمقعده إلى الخلف وقد أجفل بشدة عند ذكر الفتاة في تلك اللحظة بالذات.. إنه لم يعد يفهم ما يريده هذا الرجل؛ فكلما أوشك على فك طلاسم بعض الألغاز التي صادفته؛ يجده يزيد الأمر تعقيداً بأطروحاته وتفسيراته التي لم يفهم هدفه منها بعد..

ولكنه في النهاية لابد أن يعترف بينه وبين نفسه على الأقل أن الدكتور *ثروت* قد حرك الكثير من المياه الراكدة داخل نفسه التي بدأت تمل كل هذا الظلام الذي يحيط بها..

طال الصمت بينهما؛ بينما كان *عمر* يحدق في الدكتور *ثروت* محاولاً اختراق سُجف عقله ليعرف فيما يفكر؛ بينما انشغل الأخير بتنظيف غليونه وإعادة حشوه؛ وأخيراً قال له:

- في حقيقة الأمر أنا لم أعد أفهمك يا دكتور *ثروت*؛ فهلا كنت أكثر وضوحاً معي حتى نختصر المسافات بيننا.!

ابتسم *ثروت* وقال له بود واضح:

- صديقي العزيز.. نحن لسنا ضدين يحاول كل منا اقتناص الآخر؛ بل نحن رفيقان في خندق واحد؛ وكل ما أريده هو مساعدتك للتخلص من هذا الكابوس الذي سيودي بك إلى حافة الجنون – هذا إن لم تكن واقفاً عليها الآن بالفعل – وستنزلق سريعاً بعدها إلى الهوة.. فهلا ساعدتني أنت وأطلعتني على خبء صدرك.؟

بدأ *عمر* يشعر بالملل من هذا الجدل السقيم فقال له بنفاد صبر:

- صدقني لم يعد لديَّ ما أقوله أكثر مما قلت.. أما عن تلك الفتاة؛ فلقد رأيتها مرتين على الأقل قبل أن أسقط في غيبوبتي؛ فهي إذن لم تكن فقرة من فقرات كابوسنا الذي نتجادل حوله؛ إن كنت تريد أن تلمح إلى ذلك.!

فسأله بطريقة غامضة:

- وهل أنت على يقين أنك قد رأيتها بالفعل.؟

أجابه *عمر* بغيظ:

- **بالطبع أنا على يقين أنى رأيتها؛ وتحدثت معها أيضاً.. المرة الأولى حين التقيتها في الطريق واستقلت معي السيارة؛ والثانية داخل المقهى عندما طلبت مني الرحيل وألقت أمامي ذلك المظروف الصغير وانصرفت على عجل..**

وبطريقة مسرحية مفاجئة أخرج *ثروت* هذا المظروف وألقاه أمام *عمر* وكأنه أحد الحواة قد أخرج أرنباً من قبعته؛ وقال له:

- **هل تقصد هذا المظروف.؟!**

وما إن رأى *عمر* المظروف القديم الذي أصفر لونه؛ حتى انتفض واقفاً كمن لدغه عقرب؛ وصاح في *ثروت* بذعر:

- **نعم هو.. من أين حصلت عليه.؟**

رد عليه *ثروت* بهدوء:

- **لقد كان معك منذ البداية يا *عمر*؛ فلقد عثرت عليه زوجتك وهي تفتش جيوب سترتك التي كنت ترتديها في تلك الليلة قبل أن ترسلها إلى المغسلة للتنظيف..**

الفصل التاسع

صحوة عقل

صحوة عقل..

----

(17)

لم يكن *عمر الشوباني* يتخيل في أبداً أن تدور عجلة الزمن في عكس اتجاهها تماماً؛ وفي لحظات قليلة كما حدث الآن..

فمنذ أن قرأ تلك الورقة التي كانت داخل هذا المظروف القديم – الذي يلقى أمامه للمرة الثانية خلال بضع أسابيع لا يزيد عددها على عدد أصابع اليد الواحدة – وجد عشرات الأبواب تنفتح تباعاً داخل عقله؛ ولولا خشيته من أن يتهم نفسه بالجنون لقال إنه قد سمع تكات مزاليجها وهي تدوي في ذهنه عندما فُتحت..

لقد كان هو نفس المظروف الذي ألقته أمامه تلك الفتاة المجهولة في ذلك المقهى؛ وفي تلك الليلة الرهيبة التي كاد أن يفقد فيها حياته؛ ثم رآه بعدها بوقت قصير في يد هذا

الوغد عامل المقهى المسمى *كارم*.. والآن ها هو الدكتور *عز الدين ثروت* يلقيه اليوم أمام عينيه مرة أخرى..

ربما لم يتح له أن يطلع على محتواه في المرتين السابقتين؛ ولكنه الآن يقلبه بين يديه؛ ويراه واضحاً جلياً؛ وفي إضاءة جيدة؛ وظروف تتيح له أن يفتحه ليرى ما فيه..

لم يكن يختلف عن أي مظروف آخر من تلك المظاريف التي توضع بداخلها الرسائل والأوراق الصغيرة؛ وإن كان مجعداً وقد اصفر لونه دليل على قدمه؛ ولكن ما يحتويه كان هو الذي قلب حياته رأساً على عقب في لحظات..

ورقة صغيرة ولكنها قالت كل شيء.. كانت وكأنها مادة كيميائية صُبت فوق جدار ذاكرته؛ فأزالت الصدأ المتراكم فوقها منذ أكثر من عقدين من الزمان..

لم يشعر *عمر* بنفسه إلا وهو يخلع حذاءه؛ ويرقد ممدداً جسده المجهد فوق تلك الأريكة الجلدية داخل غرفة مكتبه في الشركة.. كان يحتضن هذا المظروف وكأنه يخشى أن يفقده..

أغمض عينيه وهو يشعر أن هناك سيلاً من الذكريات ينبجس من قاع ذاكرته مندفعاً كأنه السيل العرمرم الذي يجرف في طريقه ركام الأيام والسنين..

إنه لم ينس تلك الأيام على الإطلاق؛ ولكنه يراها الآن وكأنها كانت بالأمس القريب رغم مرور ما يقرب من الربع قرن عليها..

إنه منتصف السبعينات من هذا القرن.. تلك الحقبة المتخمة بالأحداث الجسام..

لم يكن قد مر أكثر من عامين على انتهاء حرب أكتوبر عام 1973 وما تبعها من تغيرات في المجتمع المصري على جميع المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية؛ والفكرية أيضاً مما لا شك فيه..

كان *عمر* في نهاية عامه الدراسي الأخير في الجامعة حينما توفي والده تاركاً له ثروة لا بأس بها؛ كانت قد آل إليه شطر كبير منها إرثاً عن والده؛ ولكنه استطاع بجده واجتهاده والعمل ليل نهار أن ينميها حتى صارت أضعافاً مضاعفة وكان لذكائه الفطري دورٌ كبيرٌ في أن يصبح من كبار رجال الصناعة والتجارة في مصر؛ وأن يفلت ببراعته

من قوانين التأميم المجحفة التي ابتلعت عشرات المشاريع الخاصة لأمثاله من رجال المال والأعمال في تلك الحقبة..

شعر *عمر* بانكسار شديد لوفاة والده المفاجئة؛ وخاصة في هذا الوقت وكانت الامتحانات على الأبواب؛ فلقد كان والده هو الدثار الذي يتدثر به؛ ويتقى به غائلة الزمان؛ والملاذ الذي يلوذ به إذا اكفهر وجه الأيام.. رغم أن الود كان مفقوداً بينه وبين والده بسبب قسوته في التعامل معه..

فلقد كان الابن الوحيد لوالديه اللذين رزقا به بعدما كانا قد اقتربا من فقدان الأمل في أن يخلفا وراءهما خلفاً يحمل ذكراهما بعد انتهاء الأجل فأصبح ملكاً متوجاً على عرش قلبيها..

وبرغم كل هذا الحب والاعتناء الشديد به؛ وبتحقيق أحلامه قبل حتى أن يحلم بها؛ إلا أن والده لم يترك له الحبل على الغارب؛ ولم يطلق له العنان حتى لا يكبر وقد صار رخو العود؛ هزيل القلب والعقل؛ فلقد كان يريد أن يعده إعداداً يؤهله لإدارة كل هذه الثروة من بعده..

فما كان لهذا الرجل القوي الجاد دائماً؛ والذي لا يهتم إلا بعمله ومشاريعه؛ ولا يقيم وزناً إلا للغة الأرقام؛ وحسابات المكسب والخسارة

أن يسمح لخلفه أن يضيع جهاد سنوات طوال في جمع المال؛ وتضخيم الثروة..

ولهذا ما إن شب *عمر* عن الطوق حتى تلقفه أبوه لكي يقوم عوده الذي كاد أن ينحني لكثرة التدليل؛ وبدأ يلقنه مبادئ العمل ويشركه في بعض المهام التي تناسب سنه الغضة حتى يكبر وقد تشرب كل شيء عن أعمال أبيه المتشعبة؛ حتى إذا ما حان الوقت كان له من الخبرات ما يمكنه من تولي أمر كل تلك الأعمال..

ورغم أن *عمر* لم يخالف رغبة أبيه؛ ولم يفر من تلك الدروس المبكرة.. إلا أنه كان يتوق كثيراً إلى حياة اللهو واللعب التي تعود عليها؛ خاصة وأنه كان قد وصل إلى مرحلة المراهقة وها هو يري أقرانه حوله يلهون ويمارسون حياتهم كأيٍ من أبناء الطبقات الثرية في هذا الزمن.. ولهذا فلم يكن يحب أباه كما ينبغي لمثله أن يفعل.. فقد كان يرى فيه هذا الرجل الصارم جامد المشاعر الذي ربما لم يحرمه من أي شيء قد يمنح لمن كان في مثل سنه؛ إلا أنه حرمه من أن يعيش طفولته وصباه ومراهقته كما كان يريد أن يفعل دائماً..

وعلى النقيض من ذلك كانت أمه.. فلقد كان حبها له فوق الحب بكثير وكانت دائماً ما تحاول التهوين عليه والتخفيف

عنه لكي يتحمل صرامة أبيه.. وكم من مرة تشاجرت مع زوجها لكي يرفع يده عن وحيدهما قليلاً؛ فهو ما زال غض العود ولن يحتمل كل هذه الشدة التي يعامله بها.. وكانت دائماً ما تتغاضى عن زلاته إن أخطأ أو حاد عن الصواب.. وكانت وقتها تحتضنه بابتسامتها الحزينة الحانية تعاتبه على أخطائه ولكنها في نفس الوقت تعده أنها ستغفر له ولن تعاقبه..

ولذا فما إن مرت أيام العزاء التي طالت – وذلك لمكانة أبيه الاجتماعية وعلو شأن عائلته التي كان كبيرها قبل أن يرحل عن الدنيا – وما إن ظهرت نتيجة الجامعة بنجاحه نجاحاً هزيلاً؛ حتى ألقى وراء ظهره بنير المسئولية؛ وانطلق يعب من شهوات الحياة عباً..

لم تفلح معه دموع أمه الثكلى بموت أبيه؛ والمفجوعة في انفلات حال وحيدها..

لم يجد معه تقويم الكبار من عائله أبيه وأهل والدته.. لم يستمع إلى نصح العم والخال.. بل كان كالليث الجائع الذي فك أسره فانطلق بلا قيد يفتك بكل الأعراف.. وإن كانت دائماً هناك بداخله بقعة من نورٍ ما زالت تشع بصيص ضوء حتى ولو كانت في لحظة ما قد أسدل فوقه ستائر سوداء..

وظل هكذا متأرجحاً ما بين الظلام والنور.. فتارة تراه متسلقاً كل شجرةٍ للعربدة والرذيلة؛ مبعثراً فوق رؤوس رفاق السوء ذهب أبيه..

وتارة أخرى منطوياً على نفسه محاولاً الفكاك من بين أنياب تلك الحياة التي ألهته عن أعماله؛ وتلك المشاريع التي بدأت تتضاءل بسبب سوء إدارته لها..

كانت تلك هي حياة *عمر* عندما دخلت *زهرة* من بابها المفتوح على مصراعيه أحياناً؛ والمغلق في أحيانٍ أخرى..

***

(18)

لم تكن *زهرة* سوى فتاة ريفية بكل ما تحمله الكلمة من معنى..

كانت تخطو أولى خطواتها إلى العاصمة؛ تاركة دار أهلها المعتمة بظلام الجهل والفقر؛ لتصافح عيناها أضواء المدينة بأنوارها وأهازيجها وتدب بأقدامها المرتعشة فوق أديمها..

كانت والدة *عمر* قد اشتد عليها المرض وأقعدها تماماً خاصة بعد وفاة والده؛ وأصبحت تحتاج لمن يعتني بها ويرافقها طوال يومها ولذلك فقد سعى لدى بعض المعارف لكي يأتونها بمن تقبل أن تقيم إقامة كاملة معها؛ فكانت *زهرة*..

كانت قريبة لرجل يعمل لدى أحد أقارب *عمر* كحارس عقار؛ وكانت الفتاة من عائلة شديدة الفقر؛ فما إن اشتد عودها حتى أرسلوها لتباع في سوق العمل كي تساهم في إطعام أفواه جائعة كثيرة؛ بما فيهم أفواه قريبها وأبنائه..

لم تعتبرها أمه خادمة؛ وإنما أشفقت عليها وعاملتها وكأنها فرد من أفراد الأسرة؛ فلم تكلفها بما هو فوق طاقتها؛ وأطعمتها؛ وَكَسَتْها؛ حتى أصبحت الفتاة لا ترى في الأم إلا ملاكاً من السماء ألقاها الله بين جناحيه كي يزيل عنها أدران الفقر والعوز؛ واستعباد الدنيا لها؛ واغتيالها لطفولتها وصباها؛ التي لم تعرف مذاقاً لهما..

لم تكن *زهرة* وقتها تملك أي مظهر من مظاهر الأنوثة.. فلم تكن أكثر من صبية في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها على أقصى تقدير؛ ليست بالدميمة؛ ولكنها أيضاً لم تكن جميلة.. لها وجه طفولي وجسد ضئيل ربما بسبب سوء التغذية؛ تنظر دائماً إلى الأرض وهي تتحدث مع أي أحد من البيت حتى ولو كانت الخادمة التي كانت تقوم بأعمال البيت وتنصرف في نهاية النهار..

لم تكن *زهرة* لتلفت أنظار *عمر* إليها بأي حالٍ من الأحوال.. ولهذا فهو يكاد لا يراها حتى ولو كانت أمام عينيه.. فلم تكن في نظره أكثر من طفلة ليس إلا.. خاصة وأنه لم يكن يستقر في البيت سوى بضع سويعات يقضيها في النوم غالباً..

ولكن.. إن كانت تلك هي نظرة *عمر* لها.؟ فهل كانت تلك هي نظرتها إليه.؟!

ظلت *زهرة* في البيت الكبير متفانية في خدمة سيدتها وولية نعمتها؛ ولم تدخر جهداً في ذلك عرفاناً منها بفضل تلك السيدة؛ وأياديها البيضاء عليها..

حتى بعد أن تزوج *عمر* للمرة الأولى بعد إلحاح شديد من والدته؛ وأنها تتمنى أن ترى عقبه قبل أن تلقى ربها؛ وفى النهاية نفذ لها رغبتها حباً فيها؛ وليس رغبة في الزواج الذي كان يراه قيداً قد يكبله؛ فخطبت له قريبة لها لا ينقصها المال ولا الحسن ويزيد عليهما الأصل العريق الطيب؛ فقد كانت خير امرأة قد ينالها رجل؛ ولكن.. هل كان *عمر* هو ذلك الرجل الذي يصلح لمثل تلك الفتاة ذات الأصل الطيب؛ وسليلة الأسر العريقة.؟

فرغم زواجه لم يتبدل شيء في تلك الطريقة التي كان يقضي بها أيامه؛ سوى أنه كان يرجع إلى البيت بعد منتصف الليل بساعات وبدلاً من أن يذهب إلى حجرة ينام فيها وحيداً؛ أمسي يصعد إلى الطابق الثاني – والذي تركته له أمه بالكامل لتبقى هي في غرفة في الطابق الأرضي من الفيلا – ليضجع بجوار امرأة انتظرته طوال اليوم حتى ملت الانتظار فنامت.. أو تصنعت النوم حتى لا تدب بينهما مشاجرة جديدة..

ثم ماتت الأم.. ماتت وهي تبكي حزناً على حال ابنها الذي لم ينصلح حاله حتى بعد أن تزوج؛ وأصبح له زوجة.. ماتت وهي تدعو له بالصلاح والهداية من الله..

ولم تنسَ الأم تلك الصبية التي خدمتها بكل إخلاص وحب؛ لم تنسَ *زهرة*؛ وأوصت ابنها وزوجته برعايتها وعدم التفريط فيها؛ فقلما يجدون من يخلص في خدمة الغير كما فعلت تلك الصبية..

وبوفاة الأم عاد *عمر* ليتجرع مرة أخرى مرارة فقد السند والملاذ؛ وتجرع كأس الحزن مضاعفة هذه المرة؛ فلم يكن حبه لأمه يدانيه أي حب..

ولكن.. ما إن انقضت أيام الحزن حتى عاد سيرته القديمة؛ بل غرق فيها أكثر وأكثر ظناً منه أنه بذلك سوف ينسى أحزانه.. فلم يترك موبقة من الموبقات ولم يفعلها.. شرب الخمر.. لعب الميسر.. صاحب النساء الساقطات.. وانتهى به المطاف إلى بؤرة المخدرات..

ولم يمر سوى شهور قليلة حتى لحقت الزوجة بالأم لتغادر البيت الكبير هي الأخرى.. ولكن بالانفصال عنه وليس بالموت.. فهي لم تعد تتحمل تلك الحياة التي كانت فيها شبه زوجة؛ فطلبت الطلاق بعد أن واجهته – ربما للمرة الأولى أنها ما كنت لتعيش معه تلك الفترة لولا خاطر أمه التي عطفت عليها وعاملتها كابنتها.. وتم الطلاق؛ وغادرت البيت الذي أصبح قاعاً صفصفاً بعدما خلا من كل رفيق قد يؤنس وحدته..

وهنا قرر *عمر* أن يترك هذا البيت الكبير الذي أصبح كل ركن فيه يذكره بآلام الفقد.. فقد الأحباء.. فقد الحب.. فقد الدفء.. ولذا فقد قرر بيعه واستبداله بشقة فاخرة في بناية فخمة جديدة؛ خاصة وأنه قد قرر بينه وبين نفسه ألا يكرر تجربة الزواج مرة أخرى؛ فلم يعد هناك حاجة لمثل هذا البيت الكبير لكي يقيم فيه وحيداً..

وهنا طفت مشكلة *زهرة* فوق سطح الأحداث.. فهو من ناحية يريد أن ينفذ وصية أمه له برعاية تلك الصبية؛ وعدم التفريط فيها؛ والتي شددت عليه فيها قبل وفاتها حتى ظن أنها سوف تجعله يقسم على تنفيذ وصيتها..

وفي نفس الوقت لم يعد من اللائق أن يبقي على فتاة في مثل عمرها – الذي اقترب من الثامنة عشرة – لكي تعيش معه تحت سقف بيتٍ واحدٍ بمفردهما؛ خاصة وأنه قد صرف بقية الخدم بعدما قرر بيع الفيلا الكبيرة..

وبعد مشاورات ومداولات مع قريب *زهرة*؛ والذي أتى بها إليهم وافق على أن تبقى في خدمته ولكن خلال ساعات النهار فحسب؛ على أن تعود إلى بيت قريبها لتبيت فيه حتى الصباح؛ لتعود إلى عملها في شقة *عمر*..

فما كان لهذا القريب الجشع أن يفرط في هذا الراتب الكبير الذي كانت تمنحه لها والدة *عمر*؛ والذي كان يحصل عليه كله في أول كل شهر؛ فيرسل بشطر منه إلى أسرة *زهرة*؛ ويستولي هو على الشطر الآخر..

ورغم امتعاض *عمر* من هذا الوضع إلا أنه وافق في النهاية إكراماً لذكرى والدته؛ وتنفيذاً لوصيتها.. ولكن.. ليته ما فعل..

الفصل العاشر

وراحت السكرة

وراحت السكرة..

---

(19)

انتبه *عمر* من شروده وفتح عينيه المغمضتين إثر هزات خفيفة من يد سكرتيرته؛ التي طرقت الباب ودخلت إلى حجرة مكتبه دون أن يشعر بها..

التفت إليها ذاهلاً وكأنه يراها للمرة الأولى في حياته؛ فأخبرته أنها قلقت عليه؛ لأنه لم يعتد المكوث في الشركة وحيداً هكذا حتى تلك الساعة المتأخرة..

نظر إلى ساعة يده فوجدها تشير إلى السادسة مساءً؛ فتعجب كيف مر عليه كل هذا الوقت وهو غارق بين أمواج ذكرياته دون أن يشعر.!

ودون أن يقول كلمة واحدة نهض من فوق أريكته وانصرف.. تاركاً خلفه سكرتيرته في أشد حالات العجب والاندهاش..

عاد إلى بيته لا يدري كيف عاد.! ولا كيف قاد سيارته كل تلك المسافة وهو على هذه الحالة من الإجهاد الذهني الشديد.!

إنه لم يتخيل أبداً أن مخاض الذكريات القديمة سيكون أشد ألماً من مخاض المرأة الحبلى..

استقبلته زوجته وعلى وجهها مسحة من القلق؛ ولكنها لم تسأله عن سبب تأخره عن الموعد الذي اعتاد أن يعود فيه إلى البيت في الأيام الأخيرة؛ ولا عن تبدل وجهه بهذه الطريقة؛ فلقد كان طبيعياً عندما خرج من البيت في الصباح؛ فربما كان الفضول يقتلها لكي تعرف السبب؛ إلا أنها عندما رأت نظراته الغريبة إليها آثرت عدم الحديث إليه وهو على تلك الحالة..

لقد كان يصوب إليها نظراتٍ لم تتمكن من تفسير كنهها.. أهي غضب.! أم لوم وعتاب.! أم أن الأمر كله لا يتعدى الإجهاد والتعب.؟

وهو أيضاً لم يتكلم معها في أي شيء رغم أنه ما زال مستاءً بشدة بسبب أنها تحدثت مع الدكتور *عز الدين ثروت* دون أن تخبره بذلك وبرغم أن زيارة الأخير له كان لها عظيم الأثر في أن يسترد بعض ما ضاع منه من أحداث وذكريات؛ إلا أنه كان يفضل أن يحدث هذا بعلمه وإرادته..

سألته إن كان سيتناول طعام الغداء.! أم أنه تغدى في الخارج.؟ فرفض الطعام – رغم أنه لم يضع كسرة خبزٍ واحدة في فمه منذ أن خرج في الصباح – ولكنه طلب منها أن تعد له قدحاً مزدوجاً من

القهوة وتأتيه به في غرفة مكتبه؛ وتوجه إلى غرفته وبدل ملابسه؛ ثم عاد إلى غرفة مكتبه وأغلق بابها من الداخل وجلس إلى مكتبه محتضناً لفائف تبغه وقدح قهوته؛ وأخرج ذلك المظروف اللعين من جيب منامته وأخذ ينظر إليه وعاد ليغرق بين أمواج ذكرياته..

**

إذن فقد باع *عمر* الفيلا الكبيرة؛ وانتقل إلى شقته الجديدة متأبطاً أحزانه.. لم يكن له فيها أنيس غير الوحدة وأشباح الذكريات..

وبين أطلال حياته المتهاوية؛ تنبه فجأة لوجود فتاة اسمها *زهرة*..

تلك الفتاة الريفية التي كان قليلاً ما يلتقي بها في شقته؛ إذا ما تصادف وجودها قبل أن يخرج من البيت؛ أو إن عاد يوماً على غير عادته قبل الغرب؛ وقبل أن تنصرف هي عائدة إلى بيت قريبها..

تلفت *عمر* حوله ليجد أن هناك فتاة تشاركه هذا البيت؛ حتى ولو كانت المشاركة لوقت محدود..

فتاة كان يراها بالأمس القريب مجرد طفلة رغم اقترابها من سن المراهقة.. ولكنه اليوم يراها أنثى ناضجة.. أنثى تحمل وجهاً له براءة طفلة؛ وحياء الصبايا؛ وقلب امرأة تحب..

نعم كانت *زهرة* تحبه وقد ملك حبه شغاف قلبها؛ ولكن هيهات لمن كانت مثلها أن تعترف بهذا الحب لمن كان في وضع هذا السيد

الوجيه الثري؛ الذي خالط الحسناوات الفاتنات سليلات البيوتات العريقة.. فأين هي من مثل هذا الرجل.؟!

ولكن ما كان لرجل مثل *عمر* أن تخفى عليه مثل تلك المشاعر التي امتلأ بها قلب *زهرة* تجاهه؛ فلقد لمسها في نظرات عينيها.. في اهتمامها الزائد عن الطبيعي بكل ما يتعلق به.. في تلك الرعشة التي يرتعشها صوتها كلما تحدثت إليه في أمر ما..

شعر بها رغم أنها لم تتخطَّ أبداً تلك المنطقة المحظورة بداخلها والتي تفصلها عنه.. فلقد ظلت تنظر إليه نظرة الخادم إلى سيدها وولي نعمتها الذي يمنح لها المال الذي تحيا به هي وعائلتها.. ولكن من ذا الذي يستطيع القول إنه يمتلك القدرة على التحكم في خفقات قلبه؟..

لقد بدأ وجود *زهرة* بالقرب منه يلفت انتباهه بشدة؛ دون أن يتوقف لحظة ليسأل نفسه عن السبب.. فلقد كانت أمامه دائماً منذ سنوات ولم يكن ليراها حتى.. فما الذي جذبه فيها الآن.؟

أيكون السبب هو تلك الوحدة القاتلة التي يعيشها بعد وفاة أمه وانفصال زوجته عنه.! فكانت *زهرة* شمعة أهدته بصيصاً من ضوءٍ وسط ركام الظلمة الذي يحيط به.؟

إنه لا يدري حقاً ما الذي لفت انتباهه لها كأنثى.؟ ولا لماذا يهتم بها الآن.؟ فهي لم تكن بهذا الجمال الصارخ الذي قد يضيء ولو لم يمسسه ضوء.. فأين جمالها المتوسط بجوار جمال من عرفهن من النساء.؟!

إنه حتماً لم يحبها كما أحبته هي بكل حواسها.. ولكنه استملح جمالها البسيط الهادئ.. واستطاب قربها منه ناشرة أريج صباها البكر بين جنبات بيته..

نعم هو لم يحبها.. ولكنه عشق فيها ذلك الكهف العذري الذي لم تطأه قدم إنسان من قبل؛ وأراد أن تكون قدمه هي أول قدم تطأ هذا الكهف.. أراد أن يكون أول رائد فضاء يغرس رايته فوق سطح كوكبها الذي لم يكتشفه قبله إنسان..

اقترب ودَنا.. وحذرت هي وتهربت..

جيَّش جيوشه.. شحذ كل أسلحته لدك حصون قلبها الواهية..

ولكنها تمسكت بآخر أبراج دفاعاتها؛ فلقد كانت تعلم أن انهياره سيكون فيه النهاية المحتومة..

فهي – ورغم ضآلة ما حصلته من تعليم وثقافة – إلا أنها لم تعدم ذكاء الأنثى الفطري الذي أتاح لها إدراك ما يسعى إليه أي سيد من خادمته

ولكنها رغم كل هذا لم تفكر في الفرار.. ولم تنوِ الذهاب بلا عودة أبداً..
فللقلب أحكام لا يفقهها إلا المحب العاشق..
ولكن.. إلى متى كانت ستصمد تلك الدفاعات التي ولدت سقيمة منذ البداية.؟ إلى متى سيقاوم القلب العاشق هجمات الرغبة البربرية.؟

***

(20)

لم يكف *عمر* عن الهجوم يوماً واحداً.. متنقلاً ما بين أنواعٍ مختلفة من أسلحة الهجوم..

فتارة يسمعها من خمر الكلمات ما كان ليذهب بعقل فتاة مثلها لم تسمع مثل تلك الكلمات من قبل حتى في أغاني الحب التي كانت تحرص على الاستماع إليها دائماً..

وتارة أخرى يبهر عينيها بهدايا؛ وإن كانت بالنسبة له بسيطة؛ إلا أنها عندها هي كانت تساوي الكثير والكثير..

وفي كل مرة يفعل معها هذا كان يسقط على أبواب قلعتها جندي من جنود مقاومتها.. حتى جاء ذلك اليوم الذي نفذ فيه شيطان الرغبة إلى حصنها ليحز رقبة آخر جنود مقاومتها.. وتنهار القلعة وتصير ركاما..

كان من المنطقي ألا تقوى *زهرة* طوال الوقت على صد تلك الهجمات المتتالية؛ فخارت قواها؛ وكل دفاعتها؛ فسقطت في بئر الرغبة لتروي من مائه الصدئ ظمأ القلب والجسد..

وكان لا بد للمنتصر الزائف أن يحصد ثمرة نصره الهزيل؛ فاقتطف برعم بكارتها.. في لحظة غيبت الخمر عقله؛ فنسي وصية أمه الراحلة

ونسى الأمانة التي حُمِّلها.. ونسي أيضاً من يكون هو ومن تكون هي.! ولم يحسب حساب النتائج أبداً..

وذهبت السكرة؛ وجاءت العبرة..

وانهمرت دموع الندم محاولة أن تغسل دماء الخطيئة؛ ولكن هيهات..

أفاق *عمر* من سكرة الخمر؛ وغيبوبة العقل؛ ولذة النشوة؛ ليجد أمامه جحيم الندم فاتحاً له مصراعيه يناديه كي يدخل.. ولكن بما يفيد الاحتراق في آتون الندم.؟!

تذكر الآن فقط وصية أمه له بالحفاظ على *زهرة*؛ تلك الأمانة التي تركتها بين يديه؛ ثم عاد قريبها ليكرر نفس وصية الأم؛ ويطالبه بالحفاظ عليها كأمانة لديه؛ ولكنه في المرتين خان الأمانة..

أما *زهرة* فقد أفاقت من سكرتها لتجد أشلاء جسدها البكر قد تبعثرت فأخذت تنتحب وتبكي حتى جف ينبوع الدمع في مآقيها؛ ولم يعد غير دماء القلب لتذرفها دمعاً..

لقد أدركت الآن.. والآن فقط مغبة فعلتها.. لقد كانت تعلم جيداً جزاء من تفرط في جسدها عند خالقها أولاً.. ثم عند أهلها

أرباب الجنوب والذين لم يكن عندهم دواء لذلك سوى سفك دمائها..

ولكن العجيب أنها لم تلم إلا نفسها.. بل انبرى عقلها يلتمس لسيدها ألف ألف عذر؛ ولم تحمله وزر ما حدث حتى بينها وبين نفسها.. فويل للمرأة عندما تحب..

لملمت *زهرة* أشلاء جسدها وانصرفت إلى بيت قريبها دون أن تنطق بكلمة واحدة؛ تاركة *عمر* يتقلب فوق جمر ضميره الملتهب..

ظن أنها لن تعود مرة أخرى.. ولكنها عادت في صباح اليوم التالي لتقوم بما اعتادت القيام به من عملٍ وأيضاً دون أن تنطق بكلمة واحدة وإن ظلت عيناها تحملان آلاف الكلمات..

لم يكن *عمر* قد غادر البيت في هذا الصباح؛ وكيف له مغادرته وهو لم ينم حتى السابعة صباحاً؛ وعندما استيقظ قرب العصر وجدها تعد له طعام الغداء وكأن شيئاً لم يكن..

حاول أن يتحدث معها فيما حدث بينهما بالأمس؛ محاولاً تبرير ذلك بأن الخمر كانت قد غيبت عقله حتى صار لا يشعر بما يفعل..

أسكتته *زهرة* بإشارة من يدها وقد ارتسمت فوق شفتيها ابتسامة حزينة؛ وأخبرته أنها لا تحمل له في قلبها أي ضغينة؛ بل إنها لا تحمله وزر ما حدث؛ وإنما الوزر وزرها هي وحدها..

أخبرته أن ما حدث قد حدث.. وهي الآن بين يديه ليفعل بها ما يشاء.. فإن شاء سترها بالطريقة التي يراها مناسبة له؛ وإن شاء فضحها؛ أو حتى قتلها لكي تجنب أهلها شر الفضيحة..

وأمام هذا الحب الجارف من *زهرة*؛ وهذا التسامح منها؛ لم يجد *عمر* مناصاً من أن يقسم لها بأغلظ الأيمان أنه لن يتخلى عنها أبداً مهما حدث.. ولكنه يحتاج إلى الوقت الذي يرتب فيه أموره ليرى ما يمكنه أن يفعل؛ فلم تجبه إلا بدموع الشكر والعرفان..

والعجيب بعد ذلك أنها لم تحاول يوماً أن تستغل ما حدث لابتزازه سواء مادياً أو حتى عاطفياً؛ وكان كل ما فعلته هو أنها أخلت سبيل مشاعرها تجاهه وأفسحت المجال لينابيع الحب التي تفجرت داخلها أن تروي ظمأه؛ دون حتى أن تنتظر منه أن يبادلها حبًّاً بحبٍّ..

بل إنها حتى لم تحاول أن تبدل طريقة تعاملها معه؛ ولا نظرتها إليه.. فقد ظل داخلها هو السيد؛ وهي الخادمة الفقيرة التي لا تبغي سوى رضا سيدها عنها..

وأمام كل تلك المشاعر المخلصة؛ والنفس الأبية المتفانية في حبه.. وجد *عمر* نفسه يشعر بجنين الحب يتقلب بداخل صدره..

ربما كان حبه لها أقل بكثير من حبها له؛ ولكنه في كل الأحوال كانت تلك هي المرة الأولى التي يشعر فيها بالحب تجاه أي امرأة أخرى غير أمه.. حتى زوجته التي انفصلت عنه لم يُكن لها أي حب.. بل على العكس كان يشعر تجاهها بالبغض؛ لأن الزواج منها كان مفروضاً عليه إرضاءً لأمه ليس إلا..

مرت الأيام وهما غارقان فيما هما فيه.. حتى جاء اليوم الذي أخبرته فيه بوجه يحاكي وجوه الأموات؛ بأن هناك كائناً يتكون في أحشائها..

وأسقط في يد *عمر*؛ ووقف أمامها ذاهلاً غير قادرٍ على الرد.. وكأن ما أخبرته به لم يكن في قائمة احتمالاته بعد كل ما وقع بينهما..

الفصل الحادي عشر

لابد أن أعترف

لابد أن أعترف..

_____

(21)

لم يعد *عمر* يحتمل هذا السيل الجارف من تلك التفاصيل التي ظلت دفينة عقله الباطن تحت غبار الأيام لأكثر من عقدين من الزمان..

وها هي تندفع إلى عقله الواعي وكأنها سرب من آلاف الخفافيش انطلق من كهف الذاكرة المظلم..

كيف اختفت تلك الأحداث كل هذه السنوات دون أن يذكر منها شيئاً.؟

ولماذا اختفى كل ما يتعلق بتلك الفتاة *زهرة* تحديداً دون غيرها من الذكريات.؟

ولماذا انطلقت الآن لمجرد أن رأى تلك الورقة وكأنها كانت الرافعة الذي حركت الصخرة التي كانت تسد كهف الخفافيش؛ فانطلقت متخبطة بجدران رأسه في كل اتجاه دون تمييز..

لقد مر عليه ثلاثة أيام كاملة لم يذق من طعم النوم الهادئ إلا اللمم.. فمنذ أن أعطاه الدكتور *عز الدين ثروت* هذا المظروف

الذي فجر ينابيع ذاكرته وهو يحترق في لهيب تلك الكوابيس التي لازمته كلما غمض له جفن..

إنه لم يكن يحتمل كابوساً واحداً متكرراً من قبل.. فكيف له أن يتحمل كل هذا الكم من الأحلام المميتة؛ والتي تدور كلها حول الانتقام.؟

لقد لحقت به الذئاب التي ظلت تطارده من قبل ونهشت لحمه..

وتمكنت تلك اليد السوداء البشعة من جذبه إلى داخل البئر ليغرق فيه حتى الموت..

لقد أصبح لا يعرف هل ما يراه في نومه في أيامه الأخيرة ما هو إلا مجرد حلم كابوسي يطبق فوق صدره.؟! أم أنه واقع ينتقل إليه بروحه وعقله لينال هذا العذاب الذي يستحقه عن تلك الجرائم التي ارتكبها في ماضيه.؟!

لقد أصبح الآن على يقين تام أكثر من ذي قبل أن ما حدث في تلك الليلة العاصفة لم يكن وهماً أبداً؛ لم يكن حلماً خالط الواقع كما قال له الدكتور *ثروت*..

إن المحاكمة كانت حقيقة.. والعقاب كان واقعياً.. وأنه قد ألقى به في البئر فعلاً..

لقد كانت الفتاة حقيقة ولم تكن وهماً..

نعم لم تكن وهماً.. لقد كانت هي *زهرة* بشحمها ولحمها..

كانت هي *زهرة* بنفس نظراتها الحزينة الراضية بكل ما يحدث لها دون تبرم أو شكوى..

لقد عادت إليه ذاكرته التي ظلت غائبة لأكثر من عشرين عاماً.. عادت وتذكر كل شيء وكأنه قد حدث بالأمس القريب..

إنها *زهرة* لا شك في ذلك ولا جدال.. وإلا كيف وصله هذا المظروف اللعين والذي كان محور كل ما جرى.! سواء في الماضي البعيد؛ أو في الحاضر القريب.؟

لم يكن هذا المظروف في حيازة أحد غيرها أبداً.. وهي التي ألقت به أمامه في هذا المقهى؛ فكيف لا تكون *زهرة*.؟

إنه يقترب من حافة الجنون.. إنه يحترق.. لقد أصبح عقله مثل قطعة الزبد فوق سطح ساخن.. تنصهر وتنصهر حتى تصل إلى درجة الاحتراق..

ولكن.. كيف يتخلص من هذا الجنون.؟

كيف يخرج من هذه البئر اللعينة التي سقط فيها حتى القاع.؟

لقد ناء كاهله بهذا الحمل الثقيل.. فكيف له أن يلقي به لكي يستريح.؟

ولكن.. هل يستحق أن يستريح.؟

أليس ما هو فيه الآن جزاءً وفاقاً لما اقترفت يداه.؟

كان *عمر* يهذي بهذا الكلام في حجرة نومه التي أغلقها على نفسه من الداخل؛ فلم يكن يسمح لزوجته أن تضجع بجواره خلال الأيام الثلاثة الماضية.. فهو لم يعد يحتمل أي أسئلة أو استفسار عن أسباب تلك الحالة التي وصل إليها؛ ولم يكن يريد أن يسمع منها أيضاً أي كلمات رثاء قد تنطق بها..

ولكن. وبرغم غضب زوجته *ليلى* من هذا التصرف؛ وبرغم حزنها الشديد من تلك الحال التي أصبح عليها؛ إلا أنها لم تتحدث إليه في أي شيء؛ ولم تسأله عن أي شيء؛ رغم هذا الفضول القاتل لديها لكي تفهم وتعرف..

لقد كانت هي التي عثرت على هذا المظروف في جيب سترته حينما فتشتها لتخرج ما بها قبل أن ترسلها إلى المغسلة للتنظيف..

لقد قرأت تلك الورقة التي عثرت عليها بداخله؛ ولكنها لم تفهم مما قرأته فيها شيئاً؛ ولكنها أدركت أن في الأمر امرأة أخرى.. هذا كل ما فهمته من تلك الورقة وصار يقيناً بداخلها..

أما من تكون تلك المرأة.؟ وما هي قصتها.؟ فهذا ما تتحرق شوقاً لمعرفته..

حتى عندما ذهبت بما عثرت عليه إلى الدكتور *عز الدين ثروت* وقرأ ما فيها لم يفهم منها شيئاً هو أيضاً؛ أو على الأقل هذا ما

أخبرها به وحتى بعد أن قصت عليه كل ما مر به زوجها؛ وهذا الكابوس اللعين الذي لازمه لعدة سنوات؛ فكل ما فعله هو أن قال لها: إن زوجها يمر بمرحلة عصيبة جداً.. وإنه يتوجب عليها أن تتحمل تقلباته المزاجية والنفسية في الأيام القادمة؛ وأن تبتعد تماماً عن الصدام معه بمناقشته حول ما جاء في تلك الورقة..

وفى النهاية عادت من عنده وهي لم تحمل منه سوى وعدٍ بأن يقوم بزيارة زوجها؛ ومحاولة فهم ما يحدث منه..

***

(22)

لم يفاجأ الدكتور *عز الدين ثروت* عندما زاره *عمر الشوباني* في منزله بدون موعد مسبق.. فلقد كان يتوقع تلك الزيارة؛ بل كان يعلم أنه سوف يأتيه أو على الأقل سوف يتصل به عبر الهاتف..

كان الإجهاد والتعب باديين تماماً على وجه *عمر* وكان جلياً أنه يمر بظروف نفسية غاية في السوء.. فتلك الهالات السوداء التي تحيط بعينيه المشتتين؛ ولحيته غير الحليقة؛ وتلك التجاعيد التي ارتسمت فوق وجهه.. كل هذا كان يدل على أنه قد مر بأيام عصيبة..

وبرغم أن *عمر* لم يكن ودوداً كما ينبغي في مقابلته الأخيرة معه إلا أنه استقبله بترحاب شديد؛ وأدخله إلى غرفة الاستقبال ثم طلب من الخادم أن يأتيهما بقدحين من القهوة؛ وأن ينصرف بعد ذلك مباشرة..

كان الدكتور *ثروت* يعيش بمفرده بعد وفاة زوجته منذ عدة سنوات وزواج ابنته الوحيدة والانتقال مع زوجها في بيت مستقل؛ ولم يكن يقوم على خدمته سوى ذلك الكهل الطيب الذي كان يعد له كل احتياجاته خلال النهار ثم ينصرف في المساء..

كان التوتر بادياً على وجه *عمر*؛ فأخذ *ثروت* يتحدث إليه في أمور شتى ليزيل عنه الحرج والارتباك؛ ولم يسأله أبداً عن سبب تلك الزيارة التي لم يسبقها اتفاق..

كان *عمر* يرد عليه بكلمات مقتضبة وهو شاردٌ في معظم الأوقات ولكنه بعد قليل زاد توتره؛ وبدأ يتململ عندما لم يشر الدكتور *ثروت* أي إشارة إلى حديثهما السابق في لقائهما الذي جمعهما في شركته برغم يقينه أن الأخير يعرف سبب تلك الزيارة؛ بل إنه يعرف الكثير الذي قد يكون خافياً عنه هو نفسه؛ ولهذا فلقد أخذ المبادرة وسأله:

- لابد أنك تعرف سبب زيارتي.؟ وأنك لم تفاجأ بها كما بدا لي.! أليس كذلك.؟

هز *ثروت* رأسه إيجاباً؛ ففرك *عمر* كفيه ارتباكاً وأخذ يتلفت حوله في توتر ثم قال له:

- هل يمكنني إذن أن أثق فيك وأتحدث إليك بصراحة كاملة.؟!

كان واضحاً أن *عمر* قد بذل مجهوداً مضاعفاً حتى يتخذ قراره بالتحدث عما بداخله؛ وما يخفيه عن كل من حوله؛ بل إنه هو نفسه ربما لم يكن يعرفه قبل أيام قليلة؛ ولهذا جاءت لهجته تحمل الكثير من التردد والتوتر الشديد..

أدرك *ثروت* بكل ما يعتمل في نفسه؛ وكان يقدر ذلك ويتعاطف معه تماماً؛ ولذلك فلقد أهداه ابتسامة ودود وأجابه بصوت يحمل الكثير من الحنان الأبوي وقال:

- الثقة لا تمنح يا *عمر* وإنما تُكتسب؛ فإن لم تكن تشعر بالثقة في شخصي فلا تتحدث في شيء.. ولكن لكي أريح بالك فلك أنت تعلم أنني رغم كوني لا أمارس التحليل النفسي بشكل رسمي؛ إلا إنني ألزمت نفسي بما يلتزم به أي طبيب نفسي؛ وهو الحفاظ على سر المريض مهما قال وباح بما في صدره..

أشعل *ثروت* غليونه وسحب منه أنفاساً متلاحقة ثم أكمل قائلاً:

- وكما ترى فأنا أعيش وحدي هنا؛ وقد صرفت الخادم فلن يستمع إليك أحد سواي؛ ولتكن على يقين أن كل ما ستقوله لن يتجاوز جدران تلك الغرفة؛ ولن يعلم به أحد حتى ولو كانت زوجتك *ليلى*.. فدع عنك أي تردد، وتفضل قل كل ما بداخلك..

تنهد *عمر* بارتياح وكأنه أزال عن صدره عبئاً ثقيلاً ولكنه ظل صامتاً وكأنه لم يكن يعرف من أين يبدأ حديثه؛ ولهذا فقد قال له الدكتور *ثروت* ليساعده على البداية:

- يبدو أنك في حيرة من أين تبدأ الكلام.. يمكنك أن تبدأ من عند النقطة التي تريد أن تبدأ من عندها.. أو لتبدأ منذ البداية..

أطلق *عمر* زفرة حارة من صدره وقال بلهجة يملؤها الأسى والألم:

- ربما كان الأمر بالنسبة للمستمع بسيطاً؛ ولكن بالنسبة للمتكلم يكون الألم أشد من آلام المخاض نفسها؛ ولكن هل يمكنني في النهاية أن أنال بعض الراحة لو أنني تحدثت بكل ما بداخلي.؟ أم أن آلامي سوف تزداد.؟!

شعر *ثروت* أن *عمر* مازال متردداً في البوح بما يثقل كاهله وأنه – وبرغم كل ما به من ألم – مازال يخشى الكلام.. فكان لا بد أن يتخذ معه موقفاً حازماً لكي ينهي تلك الحالة من الإقدام والتقهقر التي تسيطر عليه؛ ولهذا قال له بلهجة صارمة وهو يضغط على حروف كلماته:

- سيد *عمر*.. لا بد أن تفهم أن الطبيب النفسي يأتي عند نقطة محددة ويقف ولا يحاول أن يتجاوزها تاركاً الاختيار للمريض أن يكمل أو ينسحب؛ فهو لن يجبره على الاستمرار أبداً.. لابد أن تعرف أن العلاج النفسي أساسه هو اقتناع المريض أنه مريض وأيضاً رغبته في أن يتخلص من مشكلته النفسية التي يعاني منها..

سكت برهة وهو ينظر بعمق في عيني *عمر* الذي بدا عليه الذهول من تلك الطريقة الصارمة التي يحدثه به؛ والتي لم يعتدها منه.. فأكمل قائلاً بنفس اللهجة القاطعة:

- أنت الآن قد أتيت بكامل إرادتك لكي تنفض عنك هذا الحمل الثقيل الذي ناء به صدرك.. فإما أن تلقي ما في جعبتك الآن دون تردد.! وإما أن تحتسي قهوتك ولنتحدث في أي حديث آخر بعيد تماماً عما أتيت من أجله.!

صمت الاثنان تماماً بعد تلك الكلمات الحاسمة؛ وطأطأ عمر رأسه أرضاً ثم بعد دقيقة رفعها فجأة وبدأ يتكلم بلا توقف..

حكي له *عمر* كل شيء منذ أن وعى الدنيا.. حكى له عن علاقته بأبيه الصارم؛ وأمه الحنون.. حكى عن زوجته السابقة.. وحكى له أيضاً عن *زهرة*..

تهدج صوته كثيراً عندما بدأ الحديث عن *زهرة*؛ وكثرت توقفاته وزادت عدد لفائف التبغ التي يدخنها؛ حتى أصبحت القاعة وكأنها غرفة بخار..

لم يحاول *ثروت* مقاطعته حتى يتيح له مواصلة حديثه فلا ينكص على عقبيه؛ ولكيلا ينسى أو تتوه منه تفاصيل ما يحكي..

واصل *عمر* حديثه؛ وحكى له حكايته مع *زهرة* بكل تفاصيلها حتى وصل إلى تلك النقطة التي أخبرته فيها أن هناك جنيناً يتحرك في أحشائها..

كان قد بلغ منه الإجهاد مبلغاً كبيراً؛ فاحمرت وجنتاه؛ وتفصد العرق من جبينه؛ وكأنه كان يصارع وحشاً في داخله يمنعه من هتك هذا الستر الذي ظل مسدلاً طيلة تلك الأعوام الطويلة..

لم يحثه *ثروت* على الاسترسال عندما شعر أنه قد بدأ يتعب فعلا فقال له:

- يبدو أنك أجهدت نفسك بشدة.. أتريد أن تكتفي بهذا القدر اليوم على أن نكمل في وقت آخر.؟

فأجابه *عمر* بصوت واهن

- صدقني يا دكتور*ثروت* لو أنني خرجت من هنا الآن فلن أجد الشجاعة للعودة مرة أخرى.. لقد صارعت أشباح الذكريات كثيراً حتى أقنع نفسي بالقدوم إليك اليوم؛ فدعني أكمل الآن لعلي ألقي عن كاهلي كل ما ناء به؛ فلقد ظلت أشباح الماضي تطاردني منذ أن قمت أنت بحل قيودها عندما أعطيتني ذلك المظروف اللعين..

رد عليه *ثروت* وهو ينهض من مكانه:

- على أي حال أنا لست مشغولاً اليوم؛ وأظن أنني متشوق جداً للاستماع إليك.. كل ما هنالك أنى أردت ألا أثقل عليك.. ولكن دعنا أولاً نحتسي قدحين من القهوة.. أظنك مثلي متشوقاً لعبيرها الأخاذ..

ثم غادر الحجرة ليعود بعد قليل حاملاً صحفة نحاسية كبيرة من تلك التي تباع في خان الخليلي؛ وفوقها موقد كحولي مزخرف؛ وكل ما يلزم لصنع القهوة..

ابتسم *عمر* مندهشاً وقال له:

- هل ستصنع القهوة بنفسك.؟!

ضحك *ثروت* ضحكته الودود وقال له:

- الوحدة تعلمنا الكثير يا صديقي.. ثم لتجرب تلك القهوة التي أصنعها بيدي لتحكم أينا أفضل في صنعها.! أنا أم زوجتك *ليلى*.؟!

ضحك *عمر* ثم أشعل لفافة تبغ – قد تكون العاشرة في خلال ساعة من الزمان – وسحب منها نفساً عميقاً وأسبل جفنيه برهة ثم قال:

- هل لك أن تخبرني كيف تنمحي ذكرى ما من عقل الإنسان وكأنها لم تكن؛ بينما تظل الذكريات الأخرى – والتي رافقت تلك الذكرى الممحاة – كما هي دون أن تتأثر.؟

نظف الدكتور *ثروت* غليونه بتلك الأداة متعددة الأطراف وأعاد حشوه؛ ثم قال بتؤدة:

- نعم هذا يحدث وبنسبة ليست بالنادرة.. فهناك ما يسمى في علم النفس بفقدان الذاكرة الانشقاقي أو الانفصالي.. فقد تسقط ذاكرة متعلقة بحدث معين في قاع اللاوعي عند المريض دون غيرها من الذكريات..

كان *عمر* يستمع إليه بتركيز شديد.. ثم تساءل بصوت مضطرب خفيض وكأنه يحدث نفسه:

- أبهذه البساطة يمكن أن يفقد الإنسان جزءاً ليس بالقليل من حياته دون أن يشعر.؟!

أجابه دكتور *ثروت* باسماً:

- لا بالطبع ليست بتلك البساطة التي تتخيلها.. فغالباً ما يكون هذا المريض لديه الاستعداد النفسي لحدوث هذا الأمر؛ كأن يكون شخصا هيستيرياً مثلاً؛ فهو في هذه الحالة يكون أكثر عرضة لمثل هذه الحالة..

نظر إليه *عمر* نظرات تشي بعدم الفهم فقال *ثروت*:

- الهيستيريا مرض يعتبر من الأمراض النفسية العصابية (nervosa) والشخص الهستيري هو في الغالب إنسان مرهف الحس ويعاني من بيئة نفسية واجتماعية مليئة بكثير من الصراعات النفسية الشديدة التي تحيط به؛ والتي يعاني فيها

المريض من شعور لا يمكن تحمله؛ مثل الشعور بالخجل، الشعور بالذنب الشعور باليأس، الغضب غير المحتمل.. وهنا قد يعاني المريض من إصابة بعض أعضاء الجسد بما يسمى المرض الهستيري؛ وهي محاولة للهروب من الصراع النفسي الشديد؛ وإلصاقه بالجسد؛ فيحدث أن يصاب بفقدان وظيفة من وظائف الجسم أو فقدان الإحساس بأحد أعضاء الجسم مثل الشلل أو العمى.. أو فقدان أحد حاستي التذوق أو الشم وغيرهما من الأعراض.. وقد يصاب الفرد بأعراض أخرى مثل فقدان الذاكرة والتجول أثناء النوم ...الخ.. يكون ذلك بسبب الانفصال بين العقل والوجدان الذي يحدثه الألم النفسي عند المريض ويمكن ببساطة أكثر تعريف الهيستيريا على أنها مجموعة أعراض جسدية ونفسية تصيب مناطق الجسم التي يتحكم فيها الجهاز العصبي المركزي؛ مثل الحواس وجهاز الحركة.. ومن خلال ما عرفته الآن منك عن طفولتك وصباك؛ فيمكنني الجزم بأنك إنسان هيستيري.. وهذا ما ساعد على فقدانك للذاكرة بهذا الشكل..

هز *عمر* رأسه متفهماً ولكنه عاد ليسأله

- **ولكن لماذا تعود هذه الذاكرة المفقودة مرة أخرى؛ مسببة تلك الآلام النفسية المبرحة.؟ وما علاقة كل هذا بتلك الكوابيس البشعة التي أراها.؟**

رد عليه *ثروت* قائلاً:

- **لقد أخبرتك أن ما حدث هو فقدان لجزء من الذاكرة؛ وهذا لا يعني على الإطلاق أن هذا الجزء قد تلاشى تماماً وصار هو والعدم سواء.. ولكن كل ما هنالك هو أن هذا الجزء المفقود قد سقط في منطقة لا يمكن لوعيك أن يدركها؛ أو يستشعرها طوال وقت اختفائها مهما طال هذا الوقت؛ ولكنها لم تفنَ على الإطلاق.. فعلى سبيل المثال لو أن هناك ثقباً في جيبك الذي يحتوي على الكثير من قطع النقود المعدنية؛ فقد يحدث أن تسقط قطعة من تلك القطع الكثيرة خلال هذا الثقب؛ ثم تتدحرج لتستقر أسفل مقعدٍ ضخم في بيتك دون أن تشعر بذلك؛ هنا سيكون جيبك قد فقد تلك القطعة من النقود؛ ولكن نفس هذه القطعة ما زالت مستقرة أسفل هذا المقعد ولكنك لا تراها رغم أنك تجلس فوق هذا المقعد ربما كل يوم.. وقد يأتي هذا اليوم الذي تحرك فيه المقعد لتجد أن هذه القطعة النقدية هناك بنفس حالتها كيوم فقدها جيبك..**

تنهد *ثروت* ملتقطاً أنفاسه ثم أكمل:

- **واحياناً تكون هذه الذكرى المفقودة (ظاهرياً) مثل الطفل المشاغب الذي يختبئ في مكان ما لا تراه فيه؛ ثم يبدأ بالعبث بك ليعبر عن وجوده.. فتارة يصدر أصواتاً تجعلك تتلفت بحثاً عن مصدرها؛ وقد يقذفك مثلاً بشيء ما.. وهذا ما يتمثل في تلك الأحلام التي تلاحقك دائماً؛ فهي محاولة من العقل الباطن لتذكيرك دائماً أن هناك شيئاً ما ضائع منك.. حتى تأتي اللحظة المناسبة فيتمخض عنها.. ودائماً ما يكون المخاض مصحوباً بآلام شديدة كالتي تعاني أنت منها الآن..**

صمت الاثنان قليلاً حتى عاد *ثروت* يقول:

- **والآن عليك أن تواجه تلك الذكرى التي تمخض عنها اللا وعي لديك؛ ولا تظن أنى غير مدرك لحجم الآلام التي تعانيها من جراء اجترار تلك الذكريات؛ ولكنى أؤمن دائماً أن المواجهة خير وسيلة للعلاج؛ فمثل تلك الذكريات الأليمة كأنها طعام فاسد تناولته ويسبب لك آلاماً شديدة في أمعائك؛ فلابد هنا من إجراء عملية غسيل أمعاء لكي تتخلص من هذا الطعام؛ وربما كانت تلك العملية مؤلمة بشدة ولكنك في النهاية إن لم تفعل فقد يتسمم جسدك وتفقد حياتك..**

وهنا لم يعد أمام *عمر الشوباني* إلا أن يستكمل اجترار ذكرياته المريرة.. مهما كان المخاض شديد الألم..

الفصل الثاني عشر

ماذا يخبئ لنا القدر.؟

ماذا يخبئ لنا القدر.؟

----

(23)

اهتز *عمر* بشدة عندما أحرقت *زهرة* رأسه بتلك الصاعقة.. بينما لم تجد هي في جسدها الواهن ولا روحها الملتاعة موضعاً لم يمسسه الألم..

فروحها قد انطفأت؛ وقلبها قد تمزق إلى فتات صغير؛ أما عن العقل فقد ولى هارباً؛ فصارت شبح فتاة كانت تضحك بالأمس..

فها هي نبتة الشيطان تثمر ثمرتها؛ واقترب أوان قطافها؛ فكيف الخلاص من ثمرة الجرم إن كانت شجرته قد تشعبت جذورها في جوفها.؟ وهي تعلم جيداً أن الموت هو الجزاء الوحيد الذي ينتظرها؛ هذا إن تغاضت عن الفضيحة التي هي بالنسبة لها ولأهلها تساوي الموت ألف مرة..

ربما لم يحترزا لذلك قبل أن يغوصا حتى عنقيهما في بئر الخطيئة.. ولكن منذ متى كان اللص يكف عن مغامراته الليلة؛ رغم أنه يوقن بداخله أنه واقع ذات يومٍ لا محالة؟..

وكعادتها دائماً انسحبت *زهرة* لكي تتقوقع في ركنها المعتاد تاركة *عمر* يتخذ قراره حيالها.. فإما مداواة الجرح؛ وإما تسليمها بيديه إلى ملاك الموت.. فهي لن تحتمل نظرة انكسار تراها في عين أصغر فردٍ من أفراد عائلتها..

ولكنها لم تنسَ قبل الانصراف من أمامه أن تخبره بأنها ما زالت لا تحمله أي ذنب بمفرده وهي تمنحه تلك الابتسامة الحزينة التي لطالما احتضنته بها دائماً وكأنها أم تلوم بنظراتها طفلها الذي عبث بأشيائها فأفسدها؛ ولكنها في نفس الوقت تعده بأنها ستغفر له خطأه؛ ولن تعاقبه..

أما *عمر* فقد كان غارقاً في لجة عميقة من التفكير.. فربما ظنت هي أن الأمر بالنسبة له قد لا يكون خطراً كما هو عليها.. ولكنها مخطئة في ذلك تماماً..

فلو كان ما حدث قد حدث مع أي فتاة أخرى عرفها غير *زهرة* لهان الأمر؛ بل إنه لن يكلف نفسه وقتها مشقة التفكير فيه؛ فيكفيه أن يلقى بالمنديل في حجر تلك الفتاة الأخرى تاركاً لها مسؤولية التفكير في الحل؛ والتصرف على أساسه؛ أما بالنسبة لفتاته تلك فالمشكلة أكبر وأخطر من أن يحتمل نتائجها..

فمن ناحية كانت *زهرة* لم تبلغ بعد الثامنة عشرة من عمرها.. ومن الناحية القانونية فهي تعتبر قاصراً مما يضعه تحت طائلة القانون حتى لو أن ما حدث كان بكامل إرادتها..

هذا بالطبع لو أن أهلها سلكوا هذا الطريق ولم يقوموا بذبحهما معاً قبل أن يطاله القانون..

ومن ناحية أخرى فهو ما زال يذكر وصية والدته التي أحبها كما لم يحب ابن أمه..

هذا بخلاف أنه قد وعد *زهرة* منذ البداية بأنه لن يتخلى عنها مهما حدث؛ ولهذا فهو يجد نفسه الآن بين المطرقة والسندان؛ ولا خلاص من عهوده إلا بالوفاء بها..

فبرغم أن *عمر* قد انغمس في حياة اللهو بعد وفاة أبيه؛ حتى أصبح وكأنه نشأ فيها منذ نعومة أظفاره.. ولكن كانت هناك بداخله مضغة تسمى الضمير..

ربما كانت تغفو أحياناً وتستيقظ أحياناً؛ وربما كان ضميره في أغلب الأحيان سقيماً كسيحاً؛ إلا أنه أحياناً كان يزحف متحاملاً – على أسقامه – حتى يطل من رأس *عمر* ويعرك أذنيه لينبهه أنه ما زال موجوداً..

ولكن لم يكن هناك سبيلٌ للوفاء بعهوده؛ والخلاص من ألم الضمير إلا بإصلاح ذلك الشرخ بالزواج.. وهذا ما لم يكن يفكر فيه؛ ولم يضعه في حساباته من قبل بأي صورة من الصور..

ربما كان قد بدأ يحب *زهرة* التي أصبحت ركناً ركيناً في حياته الخاوية بعد وفاة أمه وهجر زوجته له؛ وكان يشعر في قربها بحب الزوجة؛ وحنان الأم المفقود برغم أنه يكبرها بعدة سنوات ليست بالقليلة؛ ولا يدري كيف استطاعت تلك الصبية اليانعة أن تمنحه كل تلك المنح في نفس الوقت الذي فقدها فيه من أصحابها..

ولكنه – وبرغم كل ذلك – كان لا يزال يحمل بداخله الصفات الوراثية للتعالي والتي انتقلت له من أبيه.. فكيف لمن كان مثله سليل أكابر العائلات أن يتزوج من خادمته.؟

وكيف سيكون وضعه بين باقي أفراد عائلته المتشعبة في كل مكان ومنهم من كان ذا ثروة ومال ونفوذ؛ ومنهم من كان يشغل مناصب سيادية مهمة في الدولة أو في مراكز علمية هامة..

فهل كان سيتركونه يتزوج بخادمة أمه؛ ويكون له منها خلفٌ يحمل اسم العائلة الكبير.؟

لقد كانت المعادلة شديدة التعقيد إذن.. ولم يكن الوصول إلى قرار فيها أمراً سهلاً على الإطلاق؛ فهو أيضاً – ومن خلال معرفته بها ومعاشرته لها – كان يدرك تماماً أنه قد تقدم على خطوة مجنونة قد يدفعها إلى تلك الخطوة شعورها باليأس..

فلربما سلمت نفسها إلى أهلها لكي يفعلوا بها ما يعن لهم؛ حتى لو ذبحوها ذبحاً؛ وأقاموا مأدبة للكلاب الضالة والذئاب الشرسة وقدموا فيها لحمها وعظامها طعاماً لهم؛ لعله يكون قرباناً للغفران..

وربما أقدمت على التخلص من حياتها بالانتحار حتى تفر فراراً من خطيئتها؛ وأن تجنب أهلها نير الذل وعار الخطيئة التي لن يغفرها لها ولهم أي أحد..

لم يستبعد *عمر* أبداً أن تقدم *زهرة* على مثل تلك الخطوة؛ مضحية بنفسها من أجل غيرها كما اعتادت دائماً أن تفعل منذ أن وعت الدنيا حولها..

فهذا قد يكون متوقعاً من فتاة مثلها اعتادت دائماً أن تربض ساكنة في خانة الشهيدة المتفانية؛ المستسلمة والراضية بكل ما قد يحدث لها ومعها من الآخرين؛ بلا أي تذمر أو مقاومة..

فكر *عمر* قليلاً في أنه ربما كان هناك حلٌّ آخر خلاف الزواج؛ ولكنه حلٌّ قد يبدو مستحيلاً في مثل هذا الوقت.. فلقد صور له شيطانه أن يذهب بها إلى واحدٍ من هؤلاء الأطباء الذين لم ينبض بداخلهم ذات يومٍ ضمير؛ لكي يجهض مشروع تلك النبتة قبل أن تلفظ ثمرتها إلى الدنيا..

ولكنه عاد يفكر في نتيجة مثل هذا الفعل؛ فنسبة الخطر كبيرة جداً.. فقد تموت *زهرة*؛ ووقتها حتماً ستكون الجريمة مضاعفة؛ ويكون للفضيحة أجراس تدق وتدق حتى تسمع من لم يكن له آذان..

لعن نفسه ألف لعنة عندما وصل تفكيره إلى تلك النقطة.. حدث نفسه وأخذ يسبها:

- **يا لك من وغد أثيم.. إنك حتى لم تأبه لموتها إن ماتت؛ وكل ما تفكر فيه هو الفضيحة التي قد تلحق بك؛ أو العقاب في الدنيا إن عاقبوك.. أما هذه المسكينة التي تراها تذوب ألماً أمامك كما تذيب النار الشموع فلم يهتز لها قلبك قيد أنملة..**

وكان *عمر* ينظر إليها وهي تقوم بعملها في بيته دون أن تبوح بما في صدرها؛ مكتفية بأن تمنحه ابتسامتها الحزينة كلما مرت أمامه.. كانت صامتة صمت الزنبقة التي نبتت فوق قمة جبل وحيدة بلا أنيس.. هذا الصمت الذي يجلد القلوب كالسوط الملتهب..

ليتها تثور.. ليتها تهدر في وجهه كالإعصار.. ليتها تحمله وزر ما حدث.. تسبه.. تلعنه.. بل ليتها تصفعه ألف صفعة فلعله يفيق..

ولكنها أبت إلا أن تحرقه بنيران صمتها الحزين.. تدهسه بنظراتها المستكينة الراضية بالقدر المحتوم دائماً..

أبت إلا أن تظل كعهدها دائماً تلك الشاة التي تنتظر أن يمن عليها صاحبها بالطعام؛ وهي تعلم يقيناً أنه ما كان ليطعمها إلا لكي يذبحها حينما يكتنز جسدها الهزيل باللحم الوفير..

وهنا تحرك أخيراً هذا الضمير الكسيح الرابض بداخله؛ ليحبو حبواً حتى يطل من رأسه ويشد أذنيه بشدة.. فناداها *عمر* وهمس لها بصوت متقطع وكأنه يتمنى بداخله ألا تسمعه:

- أعلم أنني وعدتك بأني لن أتخلى عنكِ ما حييت.. ولم أكن كاذباً في وعدي لكِ وما زلت على عهدي.. وبما أنه ليس هناك حلٌ إلا بالزواج فسوف نتزوج.. ولكن أمهليني قليلاً من الوقت لكي أتدبر الأمر؛ وأعد له عدته..

ألقى بكلمته تلك بسرعة وكأنه يخشى أن يبتلعها قبل أن تخطو مسرعة خارج فيهِ؛ وتلقفتها هي وكأنها غريق ألقي إليه طوق النجاة وهو يلهث بآخر أنفاسه قبل أن يغوص في اليم؛ وتبتلعه الأمواج..

ألقى بكلماته وتوجه إلى غرفته وأغلقها خلفه بالمزلاج؛ وكأنه يلقي بكسرة خبز إلى جائع فقير.. وتلقفتها هي واحتضنتها وكأنها ستقتات بها لتسد رمقها حتى يوم المأدبة الكبيرة.. يوم أن يفي بعهوده..

❋❋❋

(24)

لم يكن الأمر بهذه السهولة التي تصورها *عمر*؛ فربما لم يكن يخدعها حين وعدها بالزواج؛ ولكنه أيضاً لم يكن قد اتخذ قراره بالجدية الكافية لكي ينفذه..

ولذلك فما إن مرت عليه الليلة في سهاد حتى الصباح تطارده الهواجس وأشباح الفضيحة التي سوف ينالها إن فعل وتزوج *زهرة*.. وما إن لاح ضوء الصباح عليه قبل أن ينام ولو ساعة واحدة حتى فتر حماسه؛ وقلت عزيمته تجاه تنفيذ هذا الوعد الذي رآه الآن درباً من دروب المستحيل..

ولهذا فقد نهض وارتدى ملابسه وغادر البيت مبكراً جداً قبل موعد حضورها؛ فقد كان يخشى اللقاء والحديث في هذا الأمر معها مرة أخرى؛ تاركاً التفكير في محاولة العثور على حل آخر إلى الليالي والأيام القادمة..

ومر أسبوع كامل على هذا المنوال.. السهاد ليلاً والنوم عدة ساعات متقطعة.. ثم الخروج في الصباح الباكر قبل أن تحضر *زهرة*؛ ويظل طوال اليوم بعيداً عن بيته ليعود ليلاً بعدما يكون قد تأكد أنها قد عادت إلى بيت قريبها..

ولكنه أيضاً لم يصل إلى حلٍّ يخرج به من هذا المأزق الذي وضع نفسه فيه..

وكان لا بد أن تلحظ *زهرة* هذا الغياب وأن تدرك أنه متعمدٌ وليس من قبيل المصادفة.. وكان لا بد أن تدرك تمام الإدراك أن *عمر* يتحاشى الالتقاء بها..

فهل لهذا معنى سوى أنه قد نكص على عقبيه؛ وقرر التنصل من وعده.؟ فكان لزاماً على الكسيحة أن تتحرك.. وكان لابد أن تنطق البكماء..

وعاد *عمر* في تلك الليلة الثامنة – متأخراً كعادته في الأيام الأخيرة – ليجدها في مكانها المعتاد تنتظر قدومه؛ وكانت المواجهة حتمية..

أجفل *عمر* عندما رآها أمامه وقد ظن أنها قد رحلت.. ولكنه اغتصب ابتسامة مرتبكة ورسمها فوق شفتيه وسألها رافعاً حاجبيه في دهشة:

- **عجباً.! أما زلتِ هنا.؟ ظننتك رحلتِ..**

احتضنته بابتسامتها التي تزلزل أركانه وقالت له بصوتها المستكين:

- **افتقدتك منذ أن تحدثنا سوياً لآخر مرة.. لقد مرت ثمانية أيام لم أرك فيها؛ فأخبرتهم أني سوف أسافر لرؤية أهلي لمدة يومين وقررت أن أقضي يوماً منهما هنا حتى أراك..**

همهم *عمر* ببعض الكلمات التي لم تفهم منها شيئاً؛ ثم توجه إلى حجرته لكي يبدل ملابسه..

لاحظت *زهرة* قسمات وجهه المجهدة؛ وتلك الهالات السوداء التي أحاطت بعينيه؛ وأدركت بفطرة الأنثى وغريزتها أنه قد عانى صراعاً عنيفاً مع نفسه ليقنعها بتلك الخطوة التي وعدها بها؛ ولكن من الواضح أن النتيجة غالباً لن تكون في صالحها..

وهنا نكست *زهرة* رأسها وانزوت في أحد الأركان في انتظار أن يخرج من غرفته لتتحدث إليه..

ولكن مر أكثر من نصف ساعة ولم يخرج؛ فتوجهت إلى باب غرفته وطرقته برفقٍ وسألته إن كان يريد أن تعد له طعام العشاء.. ولم يجد *عمر* وقتها بداً من أن يخرج ويتحدث إليها مهما كانت النتيجة..

فهي لم تبت هنا الليلة إلا لكي تعرف مصيرها معه؛ ولن يستطيع هو أن يتهرب منها أكثر من ذلك..

جلس أمامها يدخن بشراهة دون أن يقول شيئاً؛ فهو لم يكن يدري كيف؛ ولا من أين يبدأ.؟

ولكن *زهرة* قصرت عليه المسافات.. فلقد لملمت شتات نفسها واستدعت شجاعتها وبادرت بالكلام وسألته بنبرة متشككة؛ وكأنها تعرف الجواب مسبقاً:

- هل تدبرت الأمر يا سيدي.؟

فنظر إليها طويلاً ثم أطلق سحابة من الدخان قبل أن يقول لها بصوت مرتبك متردد:

- أريدك أن تسمعيني جيداً يا *زهرة*؛ وأن تفهمي ما سأقوله لك.. لا بد أن تكوني على يقين أنى لن أتخلى عنك مهما حدث؛ ولكن أيضاً لا بد أن تدركي أن مسألة الزواج ليست بتلك السهولة التي تصورتها من قبل؛ على الأقل بهذه الطريقة؛ وفي هذا التوقيت.. فأنتِ بالطبع تدركين ما سيكون عليه موقف عائلتي وكل من يحيط بي من بشر تجاه تلك الزيجة؛ ولا تظني أن معنى كلامي هذا أنني أتخلى عنك أبداً؛ ولكني بالفعل أحتاج إلى وقت كاف للإعداد لمثل تلك المواجهة؛ والتي أعلم أنها لن تكون سهلة أبداً.

ردت عليه بصوت باكٍ:

- ليتني أمتلك هذا الوقت يا سيدي؛ فأنت تعلم أن هذا الحمل لن يظل طي الكتمان لوقت أطول من هذا؛ فلا بد أن تظهر معالمه عليَّ.. فكيف سأواجه الناس به وقتها.؟

نكس *عمر* رأسه وفكر قليلاً ثم قال لها:

- لقد فكرت كثيراً في هذا الأمر وأعلم أننا لا نملك الوقت فعلاً؛ ولهذا فلقد توصلت إلى حل – قد يكون صعباً ولكنه ليس

مستحيلاً – وهو في نفس الوقت حل مؤقت قد يمنحنا هذا الوقت الذي نبحث عنه؛ فربما استجدت في الأمور أمور وتغير الموقف بما يتيح لنا حل هذه المعضلة.

نظرت إليه نظرات متشككة ولكنها انتظرت حتى يكمل حديثه فأكمل قائلاً:

- **لقد فكرت في أن أستأجر لك شقة صغيرة في مدينة بعيدة عن هنا وعن أهلك؛ وعن كل من يعرفك وتعرفينه؛ لكي تقيمي فيها لفترة ما حتى أستطيع تدبر أمري؛ فأنا مثلاً أفكر بجدية في تصفية أعمالي هنا؛ والهجرة إلى أي دولة أخرى لا تلاحقنا فيها تلك القيود التي تقيد علاقتنا سوياً؛ ووقتها يمكننا أن نفكر في موضوع الزواج دون أن نكون تحت مقصلة الوقت؛ وشبح الخوف من الأهل والأقارب.. أو حتى نعيش معاً كما كنا نعيش قبل أن يحدث هذا الحمل الذي عرقل كل خططي المستقبلية..**

وهنا أدركت *زهرة* تماماً أنه يتملص منها؛ وأن ما كان شكاً قد صار الآن يقيناً لها..

نظرت إليه نظرة المتهم الذي استمع لتوه إلى قاضٍ يحكم علية بالإعدام؛ وصمتت لفترة دون رد ولكنها عندما تحدثت كان صوتها قوياً حتى إن دموعها قد جفت – وكأن نبع الدمع قد نضب – وقالت له بثبات وصوت هادئ مرتب:

- بالطبع يا سيدي أنت تعلم أنني لم أجبرك؛ بل حتى لم أطلب منك أن تقطع على نفسك هذا الوعد الذي وعدتني به؛ وأيضاً أنا لا أحملك كل الخطأ وحدك؛ بل إنني أرى نفسي أكثر خطئاً منك أنت.. فأنا التي فرطت في نفسها ولم تقاوم حتى النهاية؛ ولذا فلابد أن أتحمل أنا أيضاً نصيبي من الخطأ..

التقطت *زهرة* أنفاسها؛ وتمخضت في منديلها ثم أكملت:

- لقد كنت أدرك منذ البداية أن مثل تلك الزيجة من المستحيل أن تتم.. فكيف لخادمة فقيرة مثلي أن تقترن بسيدها سليل الأسرة العريقة؟!؛ ولكنى تمسكت بأمل الخلاص حتى النهاية.. ولكن يا سيدي ما تطلبه منى الآن ليس حلاً على الإطلاق؛ بل إنه حكم بالإعدام واجب النفاذ.. فأنت تعرف جيداً مصير الفتاة الفقيرة مثلي القادمة من تلك البيئة التي ولدت فيها؛ أنت تدرك أن القتل هو مصيري لو أنني طاوعتك وفررت إلى تلك الشقة التي تزمع استئجارها لي...

قاطعها بحدة قائلاً:

- لقد قلت لك إنه حل مؤقت؛ بعدها سأتدبر أمري؛ ثم إن أهلك كيف سيصلون إليك.؟ وكيف سيعرفون طريقك.؟

- ردت عليه بنفس الهدوء قائلة:

- هل نسيت يا سيدي من أين أتيت أنا.؟ ألا تمتد جذورك أنت أيضاً إلى الجنوب مثلي.؟ وبالطبع أنت تعرف ما يحدث للفتاة التي تفرط في شرفها وشرف عائلتها؛ حتى ولو كانت تلك العائلة بلا جاهٍ ولا مالٍ ولا أي سلطان.. وتعلم أيضاً أن الصغير قبل الكبير فيها لن يهدأ لهم بال حتى يعثروا علي؛ ثم يذبحوني ذبح الخراف.. ولا تنسَ أيضاً أنك ستكون المتهم الأول حينها.. فأنا لا أعرف أحداً غيرك؛ والمكان الوحيد الذي كنت أذهب إليه هو بيتك هذا؛ وصدقني وقتها لن يحميك اسم عائلتك ولا مالها ولا جاهها وسلطانها من أن ينالوا من رقبتك؛ ربما تكون لا تعلم كل هذا فأنت قد ولدت وتربيت في العاصمة؛ وربما كانت مثل تلك الأمور لا تعني عندك شيئاً ولكني أؤكد لك أنهم لن يتركوا حجراً فوق حجر في هذه البلاد المترامية الأطراف حتى يجدوني..

وهنا أدرك *عمر* حقيقة أخرى كانت غائبة عنه تماماً وقت أن ابتدع تلك الفكرة وليدة اللحظة؛ فكل من يعرف *زهرة* يعلم أنها لم تذهب إلى بيت آخر لكي تعمل فيه غير بيته هذا؛ ومن قبل بيت العائلة الذي باعه.. وبالفعل لن يكون هناك متهم غيره في حالة اختفائها؛ وبالطبع هو يدرك تماماً ما سيكون مصيره في تلك الحالة؛ لقد كانت على حق في كل كلمة قالتها..

وزاد تعجبه من تلك الفتاة المراهقة التي رأت بعقلها الصغير الفقير إلى العلم والثقافة ما غاب عنه هو الذي تعلم في أفضل المدارس؛ ونال شهادة جامعية؛ وعرك الحياة؛ وعركته الحياة خلال السنوات الأخيرة بعد وفاة والده..

وهنا أسقط في يده ولم يستطع أن يحرى جواباً؛ وطالت فترة الصمت التي قطعها أخيراً قائلاً:

- إذن.. لا مفر من الزواج.! وبأقصى سرعة.. أليس هذا ما ترمين إليه الآن.؟!

جاوبته بابتسامتها الحزينة ونظراتها التي تجرأت كثيراً عنها قبل تلك التجربة؛ وقالت:

- حتى هذا لم يعد مجدياً الآن بعد ما سمعته منك؛ فأنا أرفض تماماً أن يكون ثمن زواجنا هو أن تفقد عائلتك؛ أو أن تقوم بينكم عداوة بسببي.. لقد وافقتك على كلامك عندما ظننت أن عرضك للزواج منى كان بسبب حبك لي.. أما أن تكون مجبراً عليه بسبب ما حدث بيننا.! فسأقولها لك مرة أخرى.. لن أحملك النتيجة وحدك؛ وعليّ أن أتحمل معك نصيبي من الخطيئة التي ارتكبناها سوياً..

نظر إليها *عمر* متعجباً لرفضها عرض الزواج هذه المرة؛ وقال لها مندهشاً:

- **ماذا تعننين بكلامك هذا.؟! هل سنستسلم لعائلتي وعائلتك بهذه السهولة.؟ صدقيني أنا لا أراوغ؛ ولا أبحث عن سبيلٍ للفرار من المسؤولية؛ وكل ما طلبته هو مهلة فقط لتدبر الأمر..**

أشارت له *زهرة* لكي يصمت قليلاً وقالت له:

- **تمهل سيدي.. قلت لك لم يعد الحديث في الزواج وفى المهلة يجدي في شيء.. ثم إنى لم أتهمك أبداً بالفرار من المسؤولية؛ ولا المراوغة.. ولكن لنفكر في الأمر من زاوية أخرى.. ماذا لو أسرعنا بالزواج الآن أو بعد أسابيع حتى.؟! ألن يثير هذا الشكوك التي قد تقترب كثيراً من اليقين لديهم.؟! ألن يجعلهم يتساءلون عن السبب الذي يدفع رجلاً في مثل مركزك هذا لكي يسرع بالزواج من خادمته.؟!**

تنهدت وأطلقت زفيراً حاراً ثم أكملت:

- **صدقني وقتها لن تصل عقولهم إلا إلى مبررٍ واحد.. ألا وهو أننا قد ارتكبنا الفاحشة.. ووقتها لن يعفينا الزواج من انتقام أهلي أنا على الأقل..**

وللمرة الثانية يقف *عمر* مبهوتاً مذهولاً أمام منطقها السليم والذي غاب عنه ولم يدركه.. لقد بدا له جلياً أن تلك الصبية الصغيرة – والتي لم تتم الثامنة عشرة من عمرها حتى الآن – قد أصقلتها التجربة المريرة وحنكتها الخطوب والنوائب؛ فأدركت بفطرتها ما لم يدركه هو بكل ما لديه من إمكانيات فكرية وثقافية.. وفي النهاية وجد نفسه يسألها وكأنه تلميذ يحاور معلمته:

- **وما الحل الآن إذن.؟**

أجابته دون أن ترفع نظراتها إلى وجهه حتى لا يرى ما فيها من انكسار:

- **لدى حل وحيد وأخير؛ وإن كنت قد أرجأته لكي يكون الحل النهائي إذا ما سدت في وجهنا كل السبل.. والآن لم يعد أمامنا سواه..**

الفصل الثالث عشر

الماضي لا يموت

(25)

التقط *عمر* أنفاسه وصمت قليلا؛ وكان بادياً علي وجهه مدى الجهد الذي بذلة ليقص على الدكتور *عز الدين ثروت* هذا الجزء المؤلم من ذكرياته؛ فقدر الأخير صمته؛ ثم نهض وأحضر له قدحاً من الليمون البارد..

أخذ يتحاور معه في بعض الشؤون الأخرى بعيداً عن تلك الذكريات حتى يستعيد هدوءه بعض الشيء؛ فقد أدرك بخبرته وحدسه أن فصل النهاية قد اقترب؛ ووقتها سيستطيع تفسير كل الأحداث التي مرت به في تلك الليلة التي ألقى به في النيل؛ أو في البئر كما يعتقد ويصر..

وبعد أن استعاد *عمر* هدوءه نوعاً ما؛ بدأ *ثروت* يناقشه في تلك الأحداث التي رواها له منذ دقائق وسأله قائلاً:

- أظن أنها اقترحت عليك أنها سوف تجهض ما في بطنها حتى تتخلص منه؛ وفي نفس الوقت يكون أمامكما الوقت الكافي لتدبر أمركما.!

أجابه عمر بصوت مجهد:

- **هذا ما أخبرتني أنها ستفعله.. فلقد أخبرتني أنها كانت تصادق فتاة في بلدتها؛ ومرت بنفس تلك المصيبة؛ وعلمت فيما بعد من تلك الفتاة أنها ذهبت لامرأة غجرية تقيم في قرية قريبة من قريتهم وتلك الغجرية خبيرة في مثل هذه الأمور – فضلاً على أنها ترتزق من تلك الأعمال المشبوهة – ولكنى رفضت هذا الحل تماماً؛ فكما قلت لك إنه لا يقل خطورة عن انكشاف أمرنا لدى أهلها؛ وحاولت إثنائها عنه بكل الطرق؛ ولكنها أخبرتني أنها ستذهب وحدها إلى تلك المرأة؛ ولن تذكر أي شيء عنى مطلقاً؛ فإن قدر لها أن تموت فلن يمسني شيء على الإطلاق.. ولكنى أيضا رفضت؛ ولكنها أصرت عليه؛ لأنه ليس هناك أي حل آخر..**

سأله *ثروت* بخبث:

- **ولماذا رفضته إذن ما دمت قد فكرت فيه من قبل لولا خشيتك من أن يجلب لك هذا الأمر مصيبة أخرى لو حدث لها مكروه؛ فما دامت هي قد وعدتك بأنها لن تذكر شيئاً عنك.. فمِمَّ خشيت إذن.؟ وأرجوك لا تهن ذكائي وتقول لي إنك كنت تخاف عليها من الموت.!**

تنهد *عمر* بحسرة وألم ورد عليه بصوت مبحوح.

- **لا أكذبك القول يا سيدى أنني وقتها كنت في أشد حالات اليأس وكنت أتمنى الخلاص من تلك الورطة بأي طريقة؛ ولن أكذب عليك وأقول إنني كنت أخشى عليها من الموت؛ فقد صور لي الشيطان أن موتها هو الخلاص الوحيد من تلك الورطة دون أن يزج بي في صراع لم أكن على استعداد لمواجهته حينها؛ ولكن سبب رفضي في حقيقة الأمر كان نفس السبب الذي جعلني أصرف عن ذهني فكرة أن أذهب بها إلى طبيب يجهضها؛ فقد قلبت الأمر في رأسي جيداً ووجدت أن ذهابها إلى تلك الغجرية الجاهلة لكى تجهضها في ظروف بدائية غير صحية مطلقاً أكبر خطراً من ذهابها إلى طبيب في عيادته؛ ولو حدث لها مكروه – وهذا هو الاحتمال الأكبر في مثل تلك الظروف – فهذا لن يعفيني من المسؤولية؛ فبالطبع سيُعرف وقتها سبب موتها؛ وسبب ذهابها إلى مثل تلك الغجرية وهذا أيضاً سيضعني أنا في مركز المتهم الأول مهما حرصت هي على الكتمان؛ ومهما حرصت أنا على التملص من أي علاقة لي بهذا الأمر..**
- **ولهذا فقد قتلتها وألقيت بها في البئر.؟**

ألقى الدكتور *ثروت* بجملته الأخيرة في منتهى الهدوء والحزم وهو ينظر في عينيه بقوة وصرامة..

انعقد لسان *عمر* لحظات وهو ينظر برعب إليه وقد خرس لسانه تماماً؛ وأخذ يشيح بيديه بلا معنى؛ بينما ظل *ثروت* ينظر إليه بثبات وقوة وهو يدخن غليونه وكأنه لم يلق مثل تلك القنبلة منذ لحظة واحدة؛ وبقي على هدوئه هذا حتى استطاع *عمر* أخيراً أن يتكلم بصوت مبحوح وهو يصرخ مثل الجرو الذي أصابه حجر..

- ماذا تقول أيها الرجل.؟ هل جننت حتى تتهمني بمثل تلك التهمة الشنيعة.؟ من أين جئت بهذا الاتهام المعتوه.؟

ربت *ثروت* على كتفه وطالبه بالهدوء؛ ولكنه كان مثل العاصفة التي هبت بعد هذا الهدوء الذي يسبقها.. فأزاح يده بعنف؛ وعاد للتلويح بيديه؛ والصراخ بكلمات مبعثرة وهو يرغى ويزبد متهماً الدكتور *ثروت* بالجنون والعُته تارة؛ وتارة أخرى يقسم أنه لم يفعلها..

ظل هكذا دقائق حتى خارت قواه فألقى نفسه فوق المقعد واضعاً رأسه بين كفيه؛ وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة؛ بينما صمت *ثروت* تماماً وأخذ يدخن غليونه.. لقد أدرك للتو أن الحجر الذي ألقاه قد أصاب عش الزنابير داخل رأس *عمر* مما أهاجها؛ ولن تمر دقائق حتى يقر بكل ما بداخله؛ وظل يكتمه طوال كل هذه السنين؛ أو نسيه كما يدعي..

ومر وقت طويل قبل أن يرفع *عمر* رأسه؛ وتعجب *ثروت* بشدة عندما شاهد في عينيه أثر دمعات حاول جاهداً أن يداريها ولكنه فشل..

لقد شعر بالإشفاق عليه في تلك اللحظة.. أما دهشته فهي لأنه لم يتوقع أبداً أن يبكي رجلاً مثل *عمر* الذي يعرف عنه أنه جامد المشاعر صلب الرأس..

فعندما يبكي رجلٌ له تلك الصفات فلا بد أن ما أبكاه شيء يفوق طاقة الرجال..

أراد الدكتور *ثروت* أن ينهي اللقاء عند هذا الحد ولكن *عمر* أخبره أنه على ما يرام؛ ولن ينتهي من جلسته تلك قبل أن يفرغ كل ما في جوفه.. ثم أخذ نفساً عميقاً وقال بصوت كسير:

- **نعم قتلتها.. نعم أنا من قتل *زهرة* إن كان هذا ما تريد مني أن اعترف به.؟!**

***

(26)

نزلت كلماته؛ واعترافه الصريح بقتله للفتاة المسكينة كالصاعقة على رأس دكتور *ثروت* فأذهلته.. فهو حينما ألقى باتهامه كانت رميته بهدف استفزاز ذاكرة *عمر* ودفعه دفعاً لاستخراج كل رواسب الماضي من تلك البئر العميقة التي دفنت فيه قصراً أو اختياراً.. ولكنه لم يتوقع أبداً أن يكون هذا الرجل قاتلاً..

ربما كان هذا الجالس أمامه مصاباً بالفصام؛[5] ويعيش حالة من الهلوسة السمعية والبصرية أحياناً؛ وربما لم يكن *ثروت* يعرف تاريخ مرضه النفسي؛ ولكنه على يقين من أنه أصبح في مرحلة خطرة صار يعيش فيها الوهم وكأنه حقيقة..

وهذا كان واضحاً حين تعرض لهذا الحادث – والذي قلب حياته رأساً على عقب – عندما صور له وهمه الواقع الذي عاشه حينها بتلك

---

[5] - الفُصام (أو السكتزوفرينيا) (باللاتينية: Schizophrenia) هو اضطراب نفسي يتسم بسلوك اجتماعي غير طبيعي وفشل في تمييز الواقع- تشمل الأعراض الشائعة الوهام واضطراب الفكر والهلوسة السمعية بالإضافة إلى انخفاض المشاركة الاجتماعية والتعبير العاطفي وانعدام الإرادة..

الصور المرضية التي عاثت فساداً داخل عقله الباطن متمثلة في هذا الحلم المتكرر..

فهل يمكن وضع هذا الاعتراف بالقتل ضمن قائمة تلك الأوهام التي يعيشها وكأنها هي الواقع بذاته.؟

انتظر *عمر* أن يعلق الدكتور *ثروت* على ما قاله له منذ دقائق ولكنه عندما لم يرد أدرك أن الأخير يفكر بعمق في هذا الاعتراف.. ولذلك أكمل قائلاً:

- **دعني أولاً أقص عليك بقية القصة قبل أن تحلل وتدقق وتخرج عليّ بتلك التفسيرات والمصطلحات التي لن أفهم منها شيئاً.. ولكن لا بد أن أعرف أولاً على أي أساس اتهمتني بقتل *زهرة*.؟! وبالتحديد بإلقائها في البئر؛ رغم أنني لم أذكر لك أي شيء عنه حتى الآن.؟**

تمهل ثروت قليلاً قبل أن يرد؛ وسحب نفساً عميقاً من غليونه ثم قال أخيراً:

- **لقد كونت رأيي هذا من خلال معطيات كثيرة وردت في روايتك الحالية وروايتك السابقة عن تلك الأحداث التي وقعت لك في هذا المقهى في تلك الليلة؛ ولكنى دعني أعرف منك الحقيقة كاملة**

أولاً ثم بعد ذلك سأقدم لك تفسيراتي وتحليلاتي؛وبدون مصطلحات قد تؤرق ذهنك..

ثم ابتسم ليلطف الأجواء وأكمل قائلاً:

- **ولكن قبل أن تتحدث في أي شيء عليك أن تسترجع ما قلته لك من قبل؛ أن كل كلمة ستقولها هنا لن تخرج عن حدود هذا المكان فأرجو أن تقول لي ما حدث بكل صراحة؛ هذا إن كنت تهتم فعلاً بإيجاد تفسير لما حدث في تلك الليلة..**

ابتسم *عمر* ابتسامة حزينة وأجابه:

- **أعدك أن أقول لك الحقيقة كاملة دون نقصان.. فمنذ أن طفت تلك الأحداث القديمة فوق سطح الذاكرة؛ وأنا لا أكاد أتذوق للنوم طعماً وأريد الآن إلقاء هذا الحمل الثقيل عن كاهلي.. وأن يشاركني أحدٌ هذا السر الذي ظل دفين أعماقي كل تلك السنوات..**

الفصل الرابع عشر

الرحلة الأخيرة

(27)

وعاد *عمر* يتحدث مرة أخرى دون أن يقاطعه الدكتور *ثروت* وظل يقص عليه بقية قصته مع *زهرة* دون أن يتوقف.. فانبرى قائلاً:

- لقد أبيت تماماً أن تخاطر *زهرة* بحياتها بالذهاب إلى تلك المرأة الغجرية لكي تجهضها؛ ورفضت بشدة أن أوافقها على هذا بحجة أنني أخاف عليها من الموت؛ وإن كانت قد أدركت تماماً أنني أخاف على سمعتي؛ وربما أخاف من رد فعل أسرتها لو حدث لها مكروه ولكن العجيب أنها لم تحمل لي أي ضغينة أو حقد رغم أنها صارحتني بشعورها هذا..

وبالطبع حاولت أن أنفي هذا الاتهام عن نفسي؛ وأن أحاول إقناعها بأني فعلاً أخاف عليها هي قبل خوفي على مركزي وسمعتي ولكنها في النهاية سألتني عن الحل البديل..

وهنا عدت أطرح عليها فكرة أن أستأجر لها شقة بعيدة إلى أن أستطيع تدبر الأمر..

ولكن في حقيقة الأمر كان عرضي في هذه المرة أقل حماساً من المرة السابقة؛ وذلك بعدما أدركت أن هذا لن يمنع أهلها من تحميلي مسؤولية اختفائها؛ ولن أخفي سراً إن قلت إنني كنت أضمر في نفسي شيئاً آخر.. فلم يكن هدفي من عرضي هذه المرة إلا أن تتاح لي الفرصة فيما بعد لإقناعها بالذهاب بمفردها إلى أحد الأطباء لإجهاضها؛ ثم ليحدث ما يرتبه لنا القدر بعدها..

ولعلك ستتساءل.. ولماذا لم أتركها لتفعل هي ذلك كما أرادت.؟ ما دامت النتيجة واحدة؛ وأنني لن أذهب معها؛ ولن أظهر في الصورة في الحالتين.؟

والإجابة بسيطة جداً.. وهي أنني كنت واقعاً في صراع مرير ما بين بقايا ضمير تلح عليّ بعدم التخلي عنها كما وعدتها؛ وأن أتحمل المسؤولية كاملة – أو جزءاً منها على الأقل – ولذلك فقد رأيت أن الإجهاض عند طبيبٍ محترف أقل خطراً بكثير من لو أنه حدث عند تلك المرأة الجاهلة في مناخ ملوث ودون أي احتياطات طبية مناسبة..

وعلى الجانب الآخر من الصراع وقف شيطان هواي الذي كان كل ما يسعى له هو التخلص من تلك الكارثة المحققة؛ ولكني في نفس الوقت لم أكن لأضمن ما يمكن أن يحدث إذا ما تركتها لتتصرف بطريقتها..

فوقتها لن تكون أمام أنظاري بل ستكون بين يدي أهلها.. فلربما خارت قواها واعترفت بكل شيء لأهلها.. لربما باحت بسرها وسري لأحد ما حتى لو كانت تلك الصديقة التي ستستعين بها لتوصيلها إلى تلك المرأة الغجرية..

ربما أنت الآن تحتقرني.. ولكن قبل أن تفعل عليك أولاً أن تقدر ما كنت فيه؛ وأن تستشعر ما كان يستعر بداخلي من مشاعر متضاربة وقتها..

لابد أن تستحضر بداخلك شعور ذلك الفأر الذي وقف محاصراً ما بين الهراوة في يد أحدهما يتجهز ليهوي بها فوق جسده الضئيل وبين مخالب قط جائع تلتمع عيناه؛ ويسيل لعابه شراهة استعداداً لالتهامه دون رحمة..

فخيارات الهروب من الموت هنا ضئيلة جداً.. فإن أفلت من الهراوة فلن يفلت من مخالب وأنياب القط..

ربما تصور الفأر للحظة أن النجاة ستكون في مواجهة أي خطرٍ من الخطرين معتمداً على سرعته في المراوغة والفرار..

ولكن من أين له أن يضمن أن هلاكه لن يكون إلا في هذا الاختيار الذي ظن أن فيه النجاة..

ورغم كل ذلك فلن ألومك لو أنك احتقرتني.. فأنا أحتقر نفسي الآن أكثر مما تفعل أنت..

لقد تعريت أمام نفسي؛ وأدركت كم كنت نذلاً وجباناً!؛ وكم كانت الأنانية تسيطر على كل تصرفاتي فلم أبحث إلا عن مهرب ينجيني أنا؛ حتى لو كان ذلك فوق جثتها هي!..

والعجيب أنها قد قرأت في عيني هذا الصراع الدامي؛ لقد كانت نظراتها لي تشي بذلك.. وتعجبت كيف استطاعت بفطرتها أن تسبر أغوار نفسي وكأنها تقرأ من كتاب مفتوح..

لقد أدركت بحسها المرهف أنني كذاب أشر؛ وأنني لا أبغي من كل تلك المراوغة سوى الفوز بنجاتي فحسب..

ولكنها كعادتها دائماً كانت هي الكريم الذي يمنح.. وأنا ذلك الطماع الذي يأخذ دائماً دون رد..

لقد قدمت لي الحل كما فعلت دائماً.. وأخرست وساوسي عندما ابتسمت لي تلك الابتسامة الحزينة التي كانت دائماً تحتضنني

بها.. ومسحت على رأسي بكفها كأم تعانق وليدها المخطئ الذي غفرت له خطيئته بقلبها قبل لسانها..

أخبرتني أنها ستلبي رغبتي في عدم الذهاب إلى تلك المرأة؛ وأنها سوف تذهب معي إلى أي مكان أختاره لها حتى ولو كان ذلك المكان هو القبر.. فلقد أسلمت لي منذ البداية عقال نفسها؛ ومازال طرفه بيدي لآخذها إلى حيث أشاء..

لقد كانت تلك الفتاة تجلد نخوتي بكلماتها المتسامحة وعطائها اللا محدود.. ولكنها لم تكتفِ بجلدي فحسب؛ بل سددت إلى رجولتي طعنة نجلاء قاضية..

فلقد أخبرتني أنه لا بد من اتخاذ بعض التدابير الاحترازية التي تأمن لي ألا أتهم أنني وراء اختفائها، ولذلك فسوف تذهب إلى أهلها لتخبرهم أنها تركت العمل عندي لأي سبب ما؛ وستمكث هناك لمدة أسبوع أو أسبوعين ثم تعود إلى هنا بحجة البحث عن عمل جديد وعندها نلتقي وليفعل الله أمراً كان مفعولاً..

لقد قالت *زهرة* تلك الكلمات بنفس البساطة التي تسألني بها عن نوع الطعام الذي أبغي أن تطهيه لي؛ دون أن تدري أنها قد أطلقت خلفي ألف ذئب شرس يبغون نهش نخوتي وشهامتي؛ هذا إن كان قد تبقى منهما شيء..

وكان لا بد لي وقتها أن أفعل شيئاً ما يثبت أننا ما زلت آدمياً أنتمي إلى عالم البشر؛ ولست حيواناً وضيعاً ينهش لحم فريسته وهي لا تزال على قيد الحياة..

ولهذا فلقد نهضت متوجهاً إلى غرفتي؛ وكتبت لها ذلك التعهد الذي قرأته أنت يا دكتور *ثروت* عندما وقع ذلك المظروف في يدك.. نعم.. هذا خطي.. وهذا الكلام كلامي وأنا من خططته بأصابع كفي..

لقد أقررت في تلك الورقة أنني مسؤول مسئولية كاملة عما حدث بيني وبينها؛ وأن تلك البذرة التي تنمو في رحمها أنا من غرسها فيها..

والعجيب أنها رفضت أخذ تلك الورقة في البداية بدعوى أنها تثق بي إلى أبعد مدى.. ولكن أمام إصراري أخذتها وهي تنحني لتقبل يدي شكراً وعرفاناً.. فيا لها من فتاة!..

***

(28)

توقف *عمر* عن الكلام لحظاتٍ ليلتقط أنفاسه الهاربة منه بعد هذا المجهود الكبير الذي بذله في حديث متواصل دون توقف؛ ولكنه أبى أن يستمع إلى نصح الدكتور *عز الدين ثروت* بالاكتفاء بهذا القدر على أن يكمل في يوم آخر.. فلقد كان يشعر وكأنه جواد يجري في سباق وقد أشرف على خط النهاية؛ وعليه أن يكمل بأقصى ما لديه من سرعة للوصول إليه.. فإما أن يفوز وينال الراحة بعدها.! وإما أن يسقط ميتاً من شدة الإجهاد.. ولكنه سيكون قد فعلها ووصل إلى النهاية.. ولهذا فقد واصل حديثه وكأنه في سباق مع الزمن؛ واستهل كلامه قائلاً:

- لقد كنت أظن أنني منحت *زهرة* هذا الإقرار لكي تقر عينها وأقتل بعض تلك الوساوس التي كانت تراودها تجاهي؛ فكلما كنت أنظر في عينيها كنت أرى الرعب يعربد بين حدقتيها؛ فهي لم تكن يوماً على يقين أنني سوف أظل بجوارها ولا أتخلى عنها.. ولكني في الحقيقة كنت أقدمه لنفسي أيضاً لكي أستعيد بعض إنسانيتي التي سحقت بين شقي رحا أنانيتي وغروري..

ولكن ما إن تركتها وذهبت إلى غرفتي؛ واختليت بشيطاني المريد حتى أشعلت الهواجس في رأسي نارا.. فلقد وسوس لي هذا

الشيطان اللعين أنني قد تسرعت حين منحتها هذا الاعتراف البين الذي يعد دليلاً قاطعاً على أنني صاحب تلك الجريمة.. وأنني بهذا قد لففت حبل المشنقة حول عنقي بيدي..

ربما كنت على ثقة من أن *زهرة* لن تقدم على خطوة ما قد تصيبني بالضرر بامتلاكها مثل هذا الإقرار.! ولكن ماذا لو وقعت هذه الورقة في يدٍ أخرى.؟ حتماً سيكون في ذلك هلاكي.. إما بالقتل؛ وإما بالفضيحة المنكرة؛ أو حتى تقع في يد من يمكنه ابتزازي حتى آخر العمر..

لقد تملك مني الندم على تلك الخطوة الإنسانية النادرة الحدوث في سنواتي الأخيرة؛ وظلت الظنون السوداء تعبث برأسي حتى لاح لي نور الصباح.. ولكني لم أنم إلا وقد قررت أن أستعيد تلك الورقة بأي طريقة كانت.. فلقد انتهت المعركة الدائرة بين ضميري ونخوتي؛ وبين شيطان الخوف بانتصار خوفي على ضميري.. ولكن كيف أستعيدها.؟! كان هذا هو السؤال الملح الذي لم أجد له جواباً.. ظللت أفكر في وسيلة أحصل بها على تلك

الورقة قبل أن ترحل بها إلى بلدتها؛ ولكن النوم زار جفوني قبل أن أجد حلاً..

استيقظت فزعاً قرب المغرب بعد رحلة نوم بشعة رأيت فيها عشرات الكوابيس التي تدور كلها حول هذا الوسواس الذي أصاب رأسي بسبب تلك الورقة..

لقد قُتلت في تلك الكوابيس بعشرة طرق على الأقل.. ورأيت من أركبني مكبلاً فوق صهوة حمارٍ ووجهي إلى مؤخرته؛ بينما العشرات من الصبية ملوثي الوجوه وممزقي الثياب يصيحون بي ويقذفون وجهي بالتراب وقطع الوحل اللينة ويشيرون إليّ بإشارات بذيئة وقد غرقوا في الضحك.. لقد كانت ليلة بشعة بحق لم أمر بمثلها من قبل.. وهنا تذكرت في لحظة أنني لا بد أن أحصل على هذا الإقرار الذي سلمته بيدي إلى *زهرة* بعد أن وضعته في ذلك المظروف اللعين..

قفزت من فراشي كمن لدغته أفعى؛ وهرولت باحثاً عنها ومناديا إياها دون إجابة؛ ودون أن أعثر لها على أثر في الشقة كلها.. إذن فقد رحلت *زهرة* وسبق السيف العذل..

جريت إلى باب الشقة وخرجت إلى الردهة وناديت على حارس العقار بأعلى صوتي فأتاني هرولةً؛ فسألته إن كان قد رأى

***زهرة* وهي تغادر البناية؛ فأخبرني أنه رآها منذ نصف ساعة تقريباً وكان بيدها حقيبة صغيرة؛ ولكنه لم يعرف إلى أين ذهبت.؟ وأسقط في يدي وشعرت بدوار عنيف يحيط برأسي.. فلقد رحلت *زهرة* حاملة معها صك إعدامي؛ ولم يعد هناك مفر.. عادت الظنون السوداء مرة أخرى لتزيد من عبثها برأسي؛ ولم أنتبه إلا والحارس يسألني بانزعاج عما حدث.. والعجيب أنني وجدت نفسي أقول له نفس ما خططت له *زهرة*؛ بأنها قد تركت العمل عندي غاضبة بعدما تشاجرت معها؛ ولكنها رحلت قبل أن أعطيها راتبها..**

وهز الحارس رأسه متفهماً.. وإن كنت قد قرأت في عينيه عدم الاقتناع بهذا السبب الذي سقته له؛ مما زاد من هواجسي وظنوني..

فإن كان هذا الحارس – والذي لا شأن له بالأمر من قريب ولا بعيد – لم يقتنع بهذا المبرر الواهي لرحيلها.! فكيف سيكون الأمر بالنسبة لأهلها.؟! وهل سيقتنعون بتلك البساطة التي ظنناها سوياً ولن يساورهم الشك بصورة ما.؟!

صرفت الحارس وعدت إلى شقتي وظللت أدور فيها كالليث الحبيس وأنا لا أدري ماذا أفعل.؟ وفى النهاية وجدتني أرتدي

ملابسي بسرعة؛ ونزلت مسرعاً وركبت سيارتي وانطلقت بها دون أن أدري إلى أين.!

كانت الساعة قد تخطت السادسة مساءً في مثل هذا الوقت من فصل الشتاء البارد.. وكانت الأمطار ترسل رذاذاً لم يلبث أن اشتد حتى بدأت تمطر بشدة..

كنت أقود سيارتي وأنا شارد تماماً تتنازعني المخاوف؛ ولم أنتبه لنفسي إلا وأن أسير بسرعة كبيرة على الطريق الزراعي في اتجاه الصعيد.. فلقد تذكرت أنني كنت قد أوصلت *زهرة* ذات مرة حتى قريتها في محافظة المنيا.. نعم إنها نفس القرية بطلة أحداث تلك الليلة.. عزبة (أبو مندور)..

لقد ذهبت إليها وقتها فعلاً؛ وجلست على نفس المقهى الذي وقعت فيه تلك الحادثة.. بالطبع لم يكن كما هو الآن؛ ولم يكن هناك نفس الأشخاص؛ ولكنه كان موجوداً دائماً وكأنه كتب في تاريخي..

لقد حسبتها في رأسي وقتها؛ ووجدت أنها لن تصل إلى بلدتها قبلي إن زدت من سرعة سيارتي؛ فلم تكن هناك قطارات تتوقف في المنيا في مثل ذلك التوقيت؛ لا بد لها أن تركب سيارة أجرة؛ أو حافلة عامة لكي تصل إلى المركز ثم تركب سيارة أخرى لكي

تصل إلى قريتها تلك.. فإن أسرعت قليلاً فسوف أصل قبلها حتماً ووقتها يمكنني أن أنتظرها عند مدخل تلك العزبة وبطريقة أو بأخرى سوف أسترد منها هذا الإقرار الذي لن يهدأ لي بال حتى أمزقه أو أحرقه بيدي..

وبرغم أن الأمطار قد زادت من كثافتها؛ وبرغم شدة البرودة في هذه الليلة.. إلا أنني زدت من سرعة السيارة؛ ولم أبالِ بالطريق الغارق في مياه الأمطار..

لقد كانت تقريباً هي نفس أجواء ليلة الحادث الأخير.. نفس الأمطار.. نفس الطقس شديد البرودة.. نفس الطريق التي سرت فيها من قبل منذ أكثر من عشرين عاماً..

وربما أيضا كنت أشعر بالإجهاد الشديد وقتها كما حدث في هذه الليلة منذ ما يقرب من الشهر..

لقد كانت تنتابني في تلك اللحظات مشاعر عجيبة ومتناقضة.. فمن ناحية كنت أسرع بسيارتي لكي ألحق بها قبل أن تصل إلى بيتها؛ وأفقد الأمل تماماً في استرداد هذا المظروف منها قبل أن يقع في يد أحد غيرها..

ومن ناحية أخرى كان هناك شيء ما بداخلي يدعوني – وبقوة – أن أعود من حيث أتيت وأترك للأقدار أن تصنع ما تشاء مهما كانت

النتائج.. حتى لو كانت حياتي هي الثمن.. فسأكون وقتها قد نلت عقابي على هذا الاستهتار الذي عشت فيه سنواتي الأخيرة؛ وكانت نتيجته أن وضعت نفسي؛ وتلك الفتاة المسكينة في هذا المأزق المميت؛ فلماذا إذن لا أواجه مصيري برضا كاملٍ ما دمت أستحقه عن جدارة؟..

ظللت أعاني هذا الصراع الشديد طوال الطريق دون أن أستقر على قرار ما حتى وجدت نفسي أسير في هذا الطريق الجانبي؛ وأمامي تلك اللافتة المعدنية الصدئة المكتوب فوقها بخطٍ تساقطت بعض حروفه (عزبة أبو مندور)..

الفصل الخامس عشر

كهوفٌ مظلمة

---

(29)

توقف *عمر* عن الكلام فجأة وهو ينظر إلى دكتور *ثروت* نظرات خاوية تماماً من أي تعبير.. لقد كان في تلك اللحظة كمن أفاق لتوه من غيبوبة دامت لفترة طويلة؛ وعندما عاد منها وجد نفسه كالطفل الذي ضل طريق العودة إلى بيته وحضن أمه..

كان العرق الغزير قد غطى جبينه – رغم برودة الجو – فظن *ثروت* أنه قد أصيب بالإجهاد الشديد نتيجة مواصلة للحديث دون توقف لما يزيد عن ساعة كاملة..

قدم له كوباً من الماء؛ ثم قال له وهو يربت على فخذه:

- لنكتفِ بهذا القدر الآن.. فكما يبدو على وجهك أنك أجهدت بشدة ولا بد لك أن تستريح لكي تسترد قواك مرة أخرى ولنتقابل فيما بعد في الوقت الذي تحدده أنت لكي تكمل

حديثك.. رغم أنني متشوق بشدة لسماع نهاية تلك القصة خاصاً وأني أشعر أننا قد اقتربنا من خط النهاية؛ وسنستطيع سوياً تفسير كل ما غمض علينا..

ظل *عمر* يستمع إليه وكأنه يتحدث إلى أحد غيره؛ وكانت نظراته ما زالت تحمل نفس هذا الخواء ثم قال له بطريقة عجيبة:

- أي حديث تقصد.؟! لقد انتهت القصة عند تلك النقطة ولم يعد هناك ما أتحدث فيه..

وجاء الدور على الدكتور *ثروت* لتصيبه الدهشة وعدم الفهم فظل ينظر إليه محاولاً الغوص في أعماقه ليفهم ما يعنيه بقوله هذا؛ ولكنه لم يجد على وجهه أو في نظراته أي تعبير ما يدله عما يدور في خلده.. وسأله متعجباً:

- ماذا تعني بأنه لم يعد هناك حديث آخر.؟ إنك لم تحكِ لي ما الذي حدث بعدما انتظرت *زهرة* في مدخل قريتها.؟ وكيف حصلت منها على هذا الإقرار الذي فعلت كل هذا من أجله.؟

تبدلت لهجة *عمر* واعتراها التوتر والعصبية والكثير من العدائية هو يقول له:

- هذا هو كل ما حدث ولم أعد أذكر شيئاً أكثر من هذا.. إنني لم أرَ *زهرة* أبداً بعد تلك الليلة التي أعطيتها فيها الإقرار إلا منذ ما

يقرب من الشهر عندما التقطتها من الطريق عند مدخل قريتها ومرة أخرى في نفس الليلة داخل المقهى عندما أعطتني ذلك المظروف.. ثم حدث ما حدث ولم أرها بعدها أبداً..

****

لقد كان *عمر* يكذب بلا شك.. لقد كانت كل ملامحه ونظراته الزائغة تشيان بكذبه؛ وأنه يذكر تماماً ما حدث في تلك الليلة التي مر عليها أكثر من عشرين سنة؛ ولكنه لسبب ما لا يريد أن يتحدث في هذا الأمر..

لم يندهش *ثروت* كثيراً من ردة فعل *عمر*.. فهو يعلم تماماً أن المريض النفسي كثيراً ما يلجأ إلى الكذب على طبيبه الذي يعالجه فهو في الحقيقة يكذب على نفسه محاولاً إقناعها بأن ما يقوله هو الحقيقة المجردة؛ في محاولة منه للهروب من المواجهة مع تلك العقدة الكامنة بداخله..

وربما يقصد من كذبه هذا التستر على جريمة ارتكبها في الماضي ولا يريد لها أن تنكشف الآن.. وهذا ما يدعو المريض النفسي أيضاً إلى الشعور بحالة من الكراهية والعداء تجاه طبيبه الذي يحاول أن يخطو داخل هذا الكهف المظلم الذي يدفن فيها كل جرائمه السابقة وأفعاله المشينة؛ والتي يحرص – وبمنتهى القوة – أن يخفيها عن أعين كل

البشر؛ فمن الطبيعي إذن كلما اقترب الطبيب أكثر من تلك المناطق المحرمة بداخل ذاته؛ شعر بهذا العداء الشديد تجاهه..

كان الدكتور *ثروت* يدرك كل هذا تماماً؛ ولكنه في نفس الوقت ما كان ليسمح له أن يفر الآن من المواجهة مع ذلك الوحش الكريه الكامن بداخل هذا الكهف الذي دفن فيه ماضيه؛ بعدما أوشك على الخروج ومواجهته بكل طاقته..

ربما كان يدرك أن الإجهاد البدني والنفسي قد نالا من *عمر* بشدة.. ربما كان يشفق عليه الآن في صراعه العنيف هذا مع تلك الذكريات المريرة التي ظل يهرب منها على مدار سنوات طويلة..

ولكنه يعلم علم اليقين أيضاً أنه لو توقف الآن وانصرف فإنه لن يعود مرة أخرى على الأطلاق.. فكيف يعود إلى جلاده مرة أخرى؛ وقد لاحت له فرصة للفرار من سوطه الملتهب.؟!

فالمريض في هذا الوقت لا يرى أبعد من أنفه؛ ولا يفكر في شيء سوى الهروب من تلك المواجهة بأي وسيلة كانت؛ حتى لو ظل بقية حياته يعاني من ذلك الضياع النفسي؛ والعقد الكامنة التي تحرك حياته على حسب معطياتها بداخله..

حتى لو ظل أسيراً لتلك الأحلام المفزعة التي تقض مضجعه على الدوام.. فعقله المضطرب المريض يصور له أن هذا سيكون أكثر رحمة به من المواجهة..

ولم يكن أمام *ثروت* سوى الطرق على الحديد وهو ساخن..

لم يكن هناك مفر من الحصار ثم الهجوم حتى يسيطر على مريضه ولا يجعله يفر..

ولهذا فقد قال له وبمنتهى الحزم والصرامة:

- **اسمع يا *عمر*.. أنت كاذب.. لقد ماتت *زهرة* في تلك الليلة التي أسرعت فيها خلفها لكي تلحق بها وتحصل منها على هذا الإقرار بأي وسيلة من الوسائل حتى لو بقتلها.. أنت قتلتها وألقيت بها في هذه البئر التي تنغص ذكراها حياتك إلى اليوم.. والموتى لا يعودون إلى الحياة أبداً؛ فعليك الآن التحلي بالشجاعة الكافية لكي تواجه تلك الحقيقة مهما كانت مؤلمة..**

انتفض *عمر* من مقعده وقد اشتدت عدائيته تجاهه؛ وتبدلت ملامحه تماماً وخلع عن وجهه قناع الرجل المهذب الراقي سليل الأسر العريقة ليضع هذا القناع العنيف الهمجي الذي يحمل ملامح مجرم عتيد في الإجرام وصاح بالدكتور *ثروت* هادراً:

- ماذا تقول أيها الخرِف.؟! من أخبرك أنني قتلت *زهرة*.؟! وما تلك البئر التي ألقيت بها فيه.؟ من أين أتيت بهذا الهراء.؟!

امتعض *ثروت* بشدة من تلك الطريقة غير المهذبة التي خاطبه بها *عمر*؛ ولكنه ابتلع امتعاضه وتمالك نفسه متغاضياً عن هذا الأسلوب غير اللائق؛ والذي لم يتوقعه منه على الإطلاق؛ وقال له بهدوء دون أن يبدي ما بداخله:

- أنت يا *عمر* من قال لي إنك قتلتها.. أما مسألة البئر فتلك تخمين مبني على ما حكيته من قبل بخصوص ذلك الحلم الذي لازمك وكذلك أوهامك بخصوص ما حدث لك في ذلك المقهى منذ شهر تقريباً..

حدق فيه بتلك النظرات الساخطة؛ وقد تبدلت ملامحه تماماً حتى أن *ثروت* ظن أنه لو رآه على تلك الحالة في أي مكان آخر لما عرفه وقال له وهو يضغط على أسنانه بشدة بصوتٍ يشبه فحيح الأفعى الغاضبة:

- ماذا تريد مني بالضبط أيها الرجل.؟! لماذا تصر على أن تظهرني بمظهر المجنون الذي لا يعي ما يقول أو يفعل.؟!

أجابه بنفس الهدوء:

- لا أريد سوى الحقيقة التي تصر على الهروب منها؛ وأنا لم أتهمك بالجنون بعد..

ولكنك لو ظللت على تلك الحالة وهذا الأسلوب غير المهذب في الحديث معي فسأضطر للتعامل معك على أنك إنسان فقد عقله تماماً..

لقد كان *عمر* قد اقترب من حالة الجنون بشدة؛ هذا إن لم يكن قد جُن فعلاً..

فلقد ظل يصيح تارة؛ ويطلق ضحكات ساخرة عصبية تارة أخرى ويتحرك في مكانه بطريقة هستيرية ويتحدث إلى *ثروت* وكأنه يهذي:

- **أتريد الحقيقة حقاً.؟! ومن تكون أنت حتى تبحث عن الحقيقة.؟! لقد قلت لكم الحقيقة كاملة أكثر من مرة ولكن لم يصدقني أحد؛ واتهمتموني بالخبال والعُته؛ وأنني عشت وهماً كبيراً؛ ولم يقدم أحد فيكم تفسيراً لما حدث..**

والآن أنت تصدقني تماماً عندما أقول إنني قد قتلت *زهرة*؛ فلماذا لم تضف هذا القول إلى قائمة الأوهام هو أيضاً.؟! لماذا لم تعتبرني أهذي كما اعتبرتني قبل ذلك في كل ما حكيته لك.؟!

فشلت كل محاولات *ثروت* لكي يجعله يتمالك نفسه ويلتزم بعض الهدوء.. فلقد ظل يروح ويجيء في الغرفة كالنمر الهائج وقد انطلق عقال لسانه؛ وظل يصيح قائلاً:

- **لماذا لم تفسر قولي على أنني قد قتلتها بجبني وخستي معها.؟!**

لماذا لم تقل إنها هي مَن قتلت نفسها بخنوعها وسلبيتها تجاه كل ما يحدث معها ولها؟.!

لماذا لم تتهم ذويها بقتلها عندما حرموها من طفولتها وصباها وألقوا بها إلى سوق النخاسة أو ما يطلقون عليه سوق العمل لكي تتكسب بضعة قروش ينفقونها على أنفسهم؛ دون حتى أن يهتموا أين تعمل؛ ولا مع من تقيم بمفردها طوال اليوم.؟!

بدأ *عمر* يلهث بشدة؛ ويلتقط أنفاسه بصعوبة شديدة؛ وقد تساقط العرق الغزير من فوق جبينه؛ وكأنه سوف يصاب بنوبة قلبية..

ولكنه لم يكف عن الحركة والكلام حتى سقط فوق الأرض وقد فقد وعيه تماماً..

(30)

مر يومان قبل أن يذهب الدكتور *عز الدين ثروت* إلى هذا المصح النفسي الذي نقل إليه *عمر الشوباني* بعدما انهار تماماً وسقط فاقداً وعيه وهو عنده في بيته؛ ولم يجد بداً من نقله إلى هذا المصح النفسي الذي يملكه صديقه الدكتور *كمال صفوت*.. فلقد أدرك أنه يحتاج إلى رعاية نفسية خاصة إلى جانب الرعاية الطبية العضوية والتي تتوافر أيضاً بصورة طيبة في هذا المصح المميز..

استقبلته *ليلى* زوجة *عمر*؛ والتي كانت تجلس في قاعة الانتظار بالمصح؛ وكان وجهها ينطق بالحزن؛ والهم؛ لدرجة أن *ثروت* أشفق عليها بشدة؛ وخشي أن تنهار هي الأخرى بسبب تلك الضغوط النفسية والبدنية التي تعرضت لها؛ منذ أن وقع لزوجها هذا الحادث الذي ترك كل هذه الآثار النفسية السيئة لديه..

ومما زاد من الضغوط النفسية عليها هو ذلك المظروف اللعين محور كل هذه الأحداث الأخيرة؛ وقراءتها لذلك الإقرار الذي خطه زوجها بيده لتلك الفتاة *زهرة* منذ أكثر من عشرين سنة؛ والتي لم تكن *ليلى* تعرف أي شيء عنها..

ولكن ظل الفضول الأنثوي يكاد يفتك بها لكي تعرف سر هذا الإقرار.! ولمن كتبه زوجها.؟!

عاتبته بشدة؛ لأنه لم يأتِ لزيارة زوجها منذ أن نقله إلى هنا ثم أخبرها عبر الهاتف بعد ذلك؛ وما إن جاءت مسرعة حتى حاول أن يطمئنها على حالته ثم انصرف ولم يعد إلا اليوم..

اعتذر لها *ثروت*؛ وأخبرها أنه انشغل في العديد من الأمور التي تطلبت سفره خارج القاهرة؛ غير أنه كان على اتصال مستمر بالمصح ويطمئن على حال زوجها دائماً؛ ولذا فقد علم أنه خرج اليوم فقط من غيبوبته التي وقع فيها؛ ولهذا فلقد أسرع بالحضور ليراه بنفسه..

أخبرته أن *عمر* منذ أن خرج من غيبوبته هذا الصباح وهو يتساءل عن سبب وجوده في هذا المكان؛ وما الذي حدث له واستدعى دخوله مثل هذا المصح.؟!

ولكنها بالطبع لم تستطع أن تجيبه على تساؤلاته؛ لأنها هي نفسها لا تعرف لها إجابة..

تعجب *ثروت* بشدة عندما سمع منها ردة فعل *عمر* بعدما أفاق من غيبوبته؛ وعدم تذكره ما حدث له في بيته؛ وما دار بينهما من حديث أدى سقوطه في تلك الغيبوبة.. وتساءل بينه وبين نفسه..

أيكون قد نسي بالفعل؟.!

أم أنه ما زال مستمراً في محاولته الهروب من مواجهة ذاته بادعائه عدم تذكر ما كان بينهما منذ ثمانٍ وأربعين ساعة لا غير.؟!

نهض *ثروت* متوجهاً إلى السكرتارية لكي يسأل عن الدكتور *كمال صفوت* – تاركاً إجابة تساؤلاته لحين رؤية *عمر* والتحدث إليه بنفسه – فعلم أنه قد سافر في مهمة علمية صباح اليوم وترك متابعة الحالة للدكتور *مروان الديب*..

فطلب منهم أن يخبروه بأنه يريد مقابلته ليتحدث إليه بشأن مريضه ثم توجه بصحبة *ليلى* إلى غرفة زوجها..

كان عمر شبه نائم عندما دخلا إلى غرفته؛ ولكنه ما إن شعر بوجودهما حتى فتح عينيه ونظر إليهما؛ وعندما رأى الدكتور *ثروت* بصحبة زوجته ابتسم له ابتسامة ودود ورحب به قائلاً:

- مرحباً بك يا دكتور.. حمداً لله أنك قد أتيت الآن.. فلقد أخبرتني *ليلى* أنك مَن جاء بي إلى هنا ولكنها لم تذكر لي السبب الذي دعاك لذلك.! فهلا تفضلت وأخبرتني بما حدث بالضبط؟.!

أدرك *ثروت* بخبرته العلمية على الفور أن *عمر* قد نسي بالفعل كل ما دار بينهما منذ يومين مضيا؛ وأنه لا يدعي عدم التذكر كما ظن في البداية..

فتلك الابتسامة المرحبة وهذا الحديث الودي الذي خاطبه به ما كانا ليصدرا عنه لو أنه يذكر شيئاً مما حدث..

حتى ولو كان مدعياً النسيان فما كان ليستطيع أن يخفي بعض ما يعتمل في صدره من عداء له كطبيب نفسي حاول أن يُعريه أمام نفسه.. وينبش في ماضيه ليخرج تلك الجثث التي حرص على إخفائها طوال حياته..

ولكنه رغم ذلك فقد قرر أن يكون حذراً في حديثه إليه تحسباً لأي مفاجأة؛ ولذلك فلقد قال له وهو يتحسس كلماته:

- **يبدو أنك نسيت كل ما حدث منذ يومين.. لقد كنت عندي في منزلي ودار بيننا حوار وحدث أن فقدت وعيك فاضطررت إلى نقلك لهذا المشفى..**

نظر إليه *عمر* مندهشاً وقال:

- **كنت في بيتك.؟ ولكن ما الذي ذهب بي إلى بيتك.؟! فرغم أنك قريب زوجتي إلا أنني لم أذهب إليه من قبل؛ بل حتى أنى أكاد لا أعرف أين هو.؟**

أجابه *ثروت* وهو يضغط على كلماته وكأنه يختبر إلى أي مدى وصل نسيانه:

- لقد أتيتني لنتحدث سوياً بخصوص ذلك الحادث الذي وقع لك منذ ما يزيد عن شهر..

قاطعه *عمر* قائلاً بحدة:

- عن أي حادث تتحدث يا دكتور *ثروت*.؟ نعم أنا أتذكر جيداً أنه قد وقع لي حادث تصادم أثناء عودتي من بلدتي؛ ولكنه كان حادثاً بسيطاً لم يستدعِ سوى مبيتي ليلة واحدة في المشفى؛ وأعتقد أن مثل هذا الحادث لا يحتاج مني للذهاب إليك والحديث معك بشأنه هذا إلا إذا كان هناك أمر آخر لا أعرف عنه شيئاً.؟

كانت المفاجأة هذه المرة من نصيب *ليلى* التي أدركت الحين – مثلما أدرك *ثروت* أيضاً – أن *عمر* لم ينس فقط ما حدث منذ يومين ولكنه أيضاً قد نسي تماماً كل ما يتعلق بالحادث الذي وقع له؛ وإلقائه داخل سيارته في النيل؛ وكذلك كل ما أحاط به من أحداث غريبة؛ وما رواه هو نفسه عما رآه وما حدث له في هذا المقهى..

تبادل الاثنان نظرات الاندهاش بينما ظل *عمر* ينقل بصره بينهما وعيناه تنطقان بعدم الفهم؛ بينما صمت *ثروت* وقد أسقط في يده ولم يجد ما يرد به على تساؤلاته؛ وعندما لمست ليلى تلك الحيرة لديهما تدخلت لإنهاء هذا الموقف عندما لامت زوجها قائلة:

- **يالك من سخيف يا *عمر*.. فبدلاً من أن تشكر عمي *ثروت* على مجهوده الذي بذله معنا؛ فتحت له محضر تحقيق وكأنك قاضٍ في محكمة.. ولكي أريحك فأنا التي اتصلت به عندما انتابتك تلك النوبة القلبية؛ لكي ينقذني من حالة الارتباك التي أصابتني عندما لم أعرف ماذا أفعل.. أما ما قاله الآن فهو لم يكن أكثر من مزاح أو أنه أراد أن يختبر ذاكرتك بطريقة مبتكرة..**

ورغم أن *عمر* لم يقتنع بما قالته زوجته – كما بدا واضحاً في نظراته – إلا أنه ابتلع تلك الكذبة ولم يجادل فيها؛ خاصة أن الممرضة قد دخلت للتو لحقنه بعقار ما قالت إنه سيجعله ينام بعض الوقت وأخبرت *ثروت* بأن الدكتور *مروان الديب* ينتظره في مكتبه؛ فاستأذن بالانصراف متوجهاً إلى مقابلته..

الفصل السادس عشر

نـهايـة البدايـة

نهاية البداية..

----

(31)

كان الدكتور *مروان الديب* شاباً لم يبلغ الأربعين من عمره بعد.. بشوش الوجه.. تلتمع عيناه ذكاءً..

لم يكن دكتور *ثروت* قد رآه من قبل؛ ولكن كان واضحاً أن *مروان* يعرفه جيداً فلقد رحب به بشدة واحترام؛ وأخبره أنه قد سمع عنه كثيراً من الدكتور *كمال صفوت*؛ إلى جانب أنه قرأ له عدة كتب قيمة أفادته كثيراً في مجال عمله..

أخذا يتبادلان العديد من عبارات الإشادة والمجاملة؛ قبل أن يعرجا إلى حالة *عمر*؛ وسأله *ثروت* عن تقييمه لحالته الصحية والنفسية ولكن قبل أن يجيبه طرق الباب ودخلت *ليلى*؛ وكان وجهها يحمل عشرات علامات الاستفهام..

وما إن رآها *ثروت* حتى أدرك على الفور كل ما يدور في رأسها من تساؤلات حائرة لم تجد لها إجابات؛ فابتسم لها ابتسامة حنون وقال لها:

- أعلم تماماً ما تريدين قوله؛ وكل ما تريدين الاستفسار عنه..

هزت *ليلى* رأسها تصديقاً على كلامه؛ بينما انتبه دكتور *مروان* لما يقوله؛ فلقد كان متشوقاً أن يعرف المزيد عن حالة *عمر الشوباني*؛ فانبرى *ثروت* قائلاً:

- اسمعيني جيداً يا *ليلى*.. سوف أشرح لكِ حال زوجك دون الدخول في تفاصيل ومصطلحات لن تفيدك في شيء..

أشعل غليونه وهو ينظر في وجهيهما ليرى أثر كلماته عليهما؛ ثم أكمل قائلاً:

- لقد كان *عمر* يعاني من حالة فقدان ذاكرة جزئي فأسقط في قاع ذاكرته – دون إرادته – حادث محدد مر به منذ أكثر من عشرين عاماً؛ ونسي تماماً كل ما يتعلق بهذا الحادث من أحداثٍ وأشخاص وكأن لم يكن له وجود.. وحدث أن استعاد مؤخراً تلك الذكرى نتيجة بعض المؤثرات المحفزة والتي جعلتها تطفو على السطح مرة أخرى.. فمثلاً ذلك الكابوس الذي لازمه لفترة طويلة كان مثل الجرس الذي يدق في عقله الباطن لينبهه أن هناك شيئاً ما قد حدث في الماضي البعيد وأنه موجود قاع ذاكرته حتى ولو لم يدركه عقله الواعي؛ ثم جاء ذلك الحادث الذي وقع له حين

عودته من بلدته؛ حينما سرقه بعضهم ثم ألقوا بسيارته وهو داخلها في النيل.. وعلى ما يبدو أن ذلك الحادث أيقظ شيئاً ما في ذاكرته الغائبة فعادت..

قالت له:

- ولكنه الآن لا يذكر أي شيء عن هذا الحادث؛ فكيف حدث هذا.؟

أجابها على الفور:

- نسيانه لهذا الحادث يؤكد أن هناك رابطاً ما بينه وبين تلك الذكرى التي نتحدث عنها.. فهو لم ينس الحادث فحسب.. بل عادت هذه الذكرى هي أيضاً لتسقط في قاع عقله الباطن مرة أخرى.. بل إنه حتى نسي اللقاء الذي كان بيننا والذي كاد فيه أن يبوح لي بكل تفاصيلها؛ ولكنه انفعل بشدة عندما اقترب من تلك المنطقة التي ظل يهرب منها طوال السنوات العشرين الماضية؛ وسقط في تلك الغيبوبة ليفيق منها وقد نسي كل شيء يتعلق بها..

سأله *مروان*:

- هل تقصد أن السيد *عمر* قد عادت إليه حالة فقدان الذاكرة الجزئي أو الانشقاقي مرة أخرى؛ ولنفس الواقعة التي تسببت في هذ الحالة من قبل.؟

أجاب *ثروت*

- نعم بالضبط هذا هو ما حدث.. فكما لا بد أنك تعلم يا دكتور *مروان* أن حالات فقدان الذاكرة الانشقاقي هذا يحدث وبنسبة ليست بالنادرة.. فهناك ما يسمى في علم النفس بفقدان الذاكرة الانشقاقي أو الانفصالي؛ والبعض يسميه فقدان الذاكرة النفسي وذلك لتمييزه عن فقدان الذاكرة الذي ينتج عن الإصابة المباشرة في رأس الإنسان والتي قد ينتج عنها فقدان كلي أو جزئي للذاكرة.. وما يحدث في حالة فقدان الذاكرة الانشقاقي هو أن الشخص المصاب به ينسى تماماً كل ما يتعلق بحدث معين بذاته دون غيره بينما تظل بقية الذكريات كما هي.. فما يستقبله الإنسان من أحداث طوال ساعات استيقاظه؛ وما يتلقاه من مؤثرات بصرية وسمعية وحسية؛ يتم تخزينها في مراكز الذاكرة داخل المخ حتى يسترجعها الإنسان بصورة أو بأخرى مستقبلاً.. ولكن قد يحدث أن يتعرض الشخص المريض لضغط وتوتر عصبي شديد نتيجة صدمة شديدة؛ أو حادث أليم مما يسبب له آلاماً نفسية شديدة قد تودي به إلى الجنون أو الانتحار.. وهنا قد ينشئ المخ وسيلة دفاع قوية لتجنب هذا المصير؛ ويكون ذلك بأن يقوم العقل الواعي بعزل (وليس فقدان) هذا

الحدث المؤلم وإسقاط كل ما يتعلق به في بئر اللا وعي لديه..[6]

صمت *ثروت* لحظة ثم عاد ليكمل:

- **ومن الواضح أن تلك الواقعة التي تسببت في ذلك كانت مؤلمة إلى حد كبير؛ وأنها عندما عادت إلى حيز الوعي في عقل *عمر* فقد عادت بكل قوتها؛ وكأنها قد حدثت بالأمس فقط؛ ولم تفقد شيئاً من تأثيرها الرهيب عليه وقت حدوثها؛ ولهذا فإن ضميره – الذي قد أصبح أكثر يقظة عن ذي قبل وقت وقوعها – لم يحتمل بشاعة هذه الواقعة؛ ولم يغفر لنفسه جريمة ارتكبها في مطلع شبابه؛ وفي نفس الوقت لم يعد لديه أي فرصة للتكفير عن تلك الخطيئة؛ ولا إصلاح ما أفسدته.. فلم يعد أمام عقله الواعي المتألم بشدة إلا أن يعود إلى الحالة الدفاعية التي كان عليها لمدة عقدين من الزمان فأسقطها مرة أخرى في لا وعيه متبوعة بكل ما قد يذكره بها مرة أخرى..**

ربما لم تكن *ليلى* قد استوعبت كل ما قاله الدكتور *ثروت* عن حالة *عمر*؛ ولكنها على الأقل قد صارت على يقين أنها لن تعرف

---

[6] - حقيقة.. فقدان الذاكرة النفسي Psychogenic Amnesia أو ما يسميه البعض بفقدان الذاكرة الانفصالي Dissociative Amnesia

أبداً أي شيء عن تلك الواقعة الرهيبة والتي تسببت في أن يتعذب زوجها بهذه الكوابيس البشعة؛ وأيضاً كادت أن تقضي على حياته بسبب تلك الأزمة القلبية التي تعرض لها منذ يومين؛ لولا أن القدر أمهله بعض الوقت ربما ليعود فيتعذب أكثر وأكثر..

ولكن هل ستظل هكذا يقتلها الفضول لكي تعرف.؟

ولهذا فقد سألته حانقة:

- هل أفهم من كلامك يا عمي أن *عمر* سيظل على تلك الحالة من فقدان الذاكرة بكل ما يتعلق بتلك الواقعة.؟ خصوصاً فيما يتعلق بتلك الورقة التي من المؤكد أن وراءها سراً رهيباً.؟

ضحك *ثروت* بشدة وهو يربت على كفها وقال لها لائماً:

- أهذا هو كل ما يشغل بالك يا *ليلى*.؟ أكل ما يهمك هو أن تعرفي ماذا حدث في الماضي.؟ وما هو سر تلك الورقة الغامضة والتي تحمل إقراراً من زوجك بما يؤكد أنه كان على علاقة بامرأة أخرى وحملت في أحشائها جنيناً اعترف هو بأبوته له.؟

قالت له غاضبة:

- أرجوك يا عمي لا تسخر من مشاعري.. فلربما كنت لا تعرف تلك الحياة المتوترة التي عشناها معاً منذ أن بدأ يرى هذا الكابوس

اللعين.. لقد تبدل *عمر* تماماً من بعدها وصار شديد العصبية والتوتر؛ يثور لأتفه الأسباب.. كما أنه أصبح يميل إلى العزلة والابتعاد عن الحياة الاجتماعية في معظم الأوقات؛ حتى أنا صار ينعزل عني في كل مرة أكثر وأكثر.. أليس من حقي على الأقل أن أعرف تلك الواقعة التي تسببت في هذا التوتر الذي صار ديدن حياتنا.؟!

ابتسم *ثروت* وقال لها بحنان أبوي:

- **أنا لم أسخر من مشاعرك أبداً يا *ليلى*.. ولكن دعينا ننظر إلى الأمر من زاوية عقلانية أكثر.. إن ما حدث في الماضي هو ملك لزوجك فقط؛ وليس من حقك أن تنبشي في هذا الماضي.. فالتنقيب في الأرض لا يخرج الذهب دائماً.. بل ربما ما خرج منها كان أبشع من أن نحتمل وجوده.. فما الفائدة إذن في أن تعرفي شيئاً حدث في الماضي؛ وقبل أن ترتبطي بزوجك؛ بل قبل أن تتعرفي عليه حتى.؟ ألا ترين معي أن معرفتك بالماضي لن يكون له نتيجة سوى أن تظلي تتعذبين به دون داعٍ..**

صمتت *ليلى* قليلاً ثم سألته:

وهل من الممكن أن تعود له تلك الذكريات مرة أخرى.؟

أجابها *ثروت* قائلاً بحرص:

- **بالطبع هناك احتمال قائم دائماً لعودتها مرة أخرى إذا توفرت المحفزات لذلك.. ولكن في حقيقية الأمر لا يمكننا أن نخمن ما قد يحدث لعقله وقتها.. فلقد رأينا كم كانت تجربة العودة الأولى مؤلمة للحد الذي كاد أن يقضي عليه.. ولهذا فأنا أتمنى أن تظل تلك الذكريات دفينة لا وعيه إلى الأبد..**

فسألته قائلة:

- **ولكن كيف ذلك.؟ وما هي الطريقة المثالية للتعامل معه وهو على تلك الحالة.؟**

أجابها بحسم:

- **يكون ذلك بألا نحاول تحفيز تلك الذكريات سواء بقول أو فعل.. وكل المطلوب منك الآن هو أن تتعاملي معه بطريقة عادية جداً كما كانت قبل بداية ذلك الكابوس.. وأن تحرصي على عدم الحديث عن كل ما حدث خلال الشهر الأخير.. ومن ناحية أخرى أعتقد أنك ستجدين اختلافاً شديداً في تصرفاته بعدما زالت الآن أسباب توتره في الفترة الأخيرة.. أما الآن وفى التو عليكِ أن**

تعودي إلى البيت لتنالي قسطاً من الراحة بعد كل هذا المجهود الذي بذلتِه.. فهو الآن يحتاج إليكِ أكثر من ذي قبل..

انصرفت *ليلى* وهي ما زالت تشعر بالإحباط الشديد؛ لأنها لم ترضي فضولها المشتعل بداخلها تجاه ما حدث..

فتلك هي طبيعة المرأة.. فدائماً ما تقدم إرضاء فضولها عن الحرص بأن تصاب بأي أذى قد ينتج عن هذا الفضول المستعر..

***

(32)

ما إن خرجت *ليلى* وأغلقت الباب خلفها حتى التفت الدكتور *مروان* إلى *ثروت* وقال له متسائلاً في شغفٍ:

- **أظنك يا دكتور لم تذكر كل الحقيقة للسيدة *ليلى*.. فبداخلي شعور قوي أن ما خفي لديك أكثر بكثير مما صرحت به.!**

ابتسم *ثروت* وقال له:

- **نعم صدق حدسك يا دكتور *مروان*؛ هناك بعض التفاصيل التي لم اذكرها لها.. فانت تعلم أنه ليس كل ما يقال للطبيب النفسي يمكنه التصريح به خصوصاً لأصحاب الشأن من المقربين للمريض.. ثم إنني قلت لها كل ما يهمها معرفته في الوقت الحالي.. ولكني سأقص عليك الذي حدث كله بالتفصيل؛ لأن ذلك سوف تحتاجه بشدة وأنت تتابع حالة *عمر* النفسية..**

وبدأ يقص عليه كل ما نما إلى علمه فيما يتعلق بتلك الحالة منذ البداية وحتى تلك اللحظة التي انهار فيها *عمر* وسقط فاقداً لوعيه دون أن يترك أدق التفاصيل؛ وما إن انتهي من سرده حتى شملهما الصمت لبرهة الذي قطعه *مروان* بقوله:

- يالها من حالة عجيبة لم يمر عليّ مثلها من قبل!.. وأعجب ما فيها هو تكرار فقدان الذاكرة لنفس الحدث مرتين..

أجابه *ثروت* قائلاً:

- ما زال العقل البشري لغزاً كبيراً؛ ولن يستطيع أحد أن يجزم أنه يستطيع فك شفرته؛ وأدراك كل أسراره؛ رغم هذا التقدم الهائل في العلوم سواء كانت النظرية أو المعملية.. ولهذا ستفاجأ دائماً بكل ما لا يخطر على بالك أبداً..

هز *مروان* رأسه موافقاً.. فاستطرد *ثروت* قائلاً:

- لقد عانى *عمر* منذ صباه من حالة فصام[7] – أو شيزوفرنيا كما يحلو للبعض تسميتها – ظلت تكبر معه؛ وذلك بسبب تلك الطريقة التي تربى عليها..

فها هو الأب الصارم يربي ابنه بطريقة صارمة لكي ينشئه صلب العود لكي يدير أمواله من بعد موته ويكون استمراراً لاسم العائلة قوياً ناصعاً..

وها هي الأم التي رزقت وحيدها بعد طول انتظار فمنحته من الحنان والعطف أضعافا مضاعفة محاولة أن تخفف عنه صرامة أبيه..

وها هو الفتى اليافع تتصارع بداخله رغبتان على طرفي النقيض.. رغبته في طاعة والده الصارم؛ وعلى الطرف الآخر الرغبة في أن يحيا كأقرانه من أبناء الأثرياء؛ الذين يحيون حياة اللهو والمتعة.. وهنا نشأ الصبي

7– الفُصام أو السكتزوفرينيا باللاتينية Schizophrenia هو اضطراب نفسي يتسم بسلوك اجتماعي غير طبيعي وفشل في تمييز الواقع.. تشمل الأعراض الشائعة الوهام واضطراب الفكر والهلوسة السمعية بالإضافة إلى انخفاض المشاركة الاجتماعية والتعبير العاطفي وانعدام الإرادة .عادة ما تظهر الأعراض تدريجيا، حيث تبدأ في مرحلة البلوغ، وتستمر لفترة طويلة..

مضطرب الشخصية.. ممزق بين شخصيتين يسكنانه.. إحداها سوية إلى حد كبير؛ والأخرى سيكوباتية[8] شريرة تتسم بالشر والأنانية المفرطة..

وظل متأرجحاً بين الشخصيتين؛ فتارة تسيطر عليه الشخصية السوية وتارة أخرى تسيطر عليه الشخصية الشريرة..

حتى مات أبوه وورث تلك الثروة الكبيرة؛ فانطلقت الشخصية الشريرة لتسيطر عليه بصورة أكبر وتحاول القضاء على الشخصية الطيبة بداخله ولكن الأخيرة ظلت تقاوم بشدة..

وهنا نشأ الصراع الرهيب بينهما؛ أيهما يسيطر عليه وتزيح الأخرى من طريقها؟..

8- السيكوباتية -بالإنجليزية- Psychopathy ، مرض عقلي بتميز المريض به (السيكوباتى) بالسطحية وانعدام الشعور بالخجل، والسلوك المعادي للمجتمع والناس، وفقر عام في الانفعالات، والبعد عن العلاقات الشخصية.

كان الدكتور *مروان* يستمع إليه سعيداً بتلك الفرصة التي أتاحت له الجلوس وجهاً لوجه مع تلك الشخصية الفذة؛ والاستماع إلى هذا التحليل القيم لشخصية *عمر الشوباني* ولهذا لم يقاطعه إلا عندما سكت لالتقاط أنفاسه فقال له:

- **إنك عندما تصور هذا الصراع الرهيب داخل نفس *عمر* فكأنك تتحدث عن رواية دكتور جيكل ومستر هايد..[9]**

ابتسم *ثروت* وقال له:

- **ربما.. ولكن هناك اختلافات بين ما جاء في الرواية؛ وبين حالة *عمر*؛ ففي الحالة الأولي كانت شخصية مستر هايد أكثر شراً إلى جانب أن الكاتب كان خيالياً في تصويرها؛ وأنها**

9- دكتور جيكل ومستر هايد هي رواية خيالية للأديب الأسكتلندي روبرت لويس ستيفنسون نشرت لأول مرة في لندن عام 1886. وتتناول الرواية الصراع بين الخير والشر داخل الإنسان، اهتم بها علماء النفس لما فيها من نظره علمية دقيقة لما يدور بداخل النفس البشرية من صراعات، لاقت نجاحاً فورياً بعد صدورها فقد باعت حوالي 40 ألف نسخة في الأشهر الستة الأولى من صدورها، وقرأتها الملكة فكتوريا نفسها، ووصل صداها إلى مختلف دول العالم.

كانت تنفصل تماماً عن الشخصية السوية لدكتور جيكل حتى جسدياً بتغير ملامح الوجه والجسد تماماً على صورة متناقضة مع ملامح الشخصية الأصلية.. والنقطة الثانية هو أن دكتور جيكل ابتكر عقاراً بتناوله يتاح له التحكم في توقيت ظهور أي من الشخصيتين وقتما أراد؛ وهذه أيضاً صورة خيالية..

رد عليه *مروان* قائلاً:

- **ولكنهما حتماً يتفقان في هذا الصراع العنيف بين الشخصيتين..**

- **هذا حقيقي.. ولكن في الرواية انتهى الصراع بأن استطاع مستر هايد أن يقتل دكتور جيكل لينتصر الشر بداخله على الخير.. أما في حالة *عمر* فكانت نتيجة هذا الصراع غير محسومة؛ فلقد احتدم الصراع بين الشخصيتين في الماضي حول واقعة بعينها ألا وهي ما حدث لتلك الفتاة التي تسمى *زهرة*؛ فتجد أن الشخصية السوية بداخل *عمر* تشعر بألم رهيب وعذاب ضمير قد لا يحتمله؛ وعلى الجانب الآخر كانت الشخصية الشريرة تحاول أن تقنع نفسها أن ما حدث للفتاة كانت نتيجة خطئها هي أو خطأ ذويها؛ أو أنها لم تمت**

من الأساس وأنها ما زالت على قيد الحياة.. وكانت النتيجة هي أن الواقعة المتنازع عليها نفسها سقطت في قاع اللاوعي وبالتالي توقف الصراع حولها مؤقتاً؛ ولكننا لا نستطيع القول إن جانب الخير هنا قد انتصر؛ ولا أن جانب الشر هد هُزم.. فقط توارت شخصية مستر هايد داخل *عمر* إلى الظل مؤقتاً مع استمرارها في محاولة الخروج إلى النور مرة أخرى في صورة تلك الأحلام المزعجة التي تذكر دكتور جيكل بما ارتكبه في الماضي لكي تجبره على التذكر حتى يعود الصراع إلى الوجود مرة أخرى ووقتها يكون هناك فرصة لمستر هايد أن ينتصر على دكتور جيكل..

وأردف *ثروت* مبتسماً:

- هل تعلم أنني رأيت بعيني رأسي تلكما الشخصيتان وهما تتصارعان وجهاً لوجه.؟

لقد أتت الشخصية السوية داخل *عمر* إلى بيتي لكي تعترف بكل ما فعلته في الماضي.. ولكن عندما اقتربت من المنطقة المحظورة بداخله قفزت الشخصية الشريرة لتدافع عن

نفسها وتلجم الأخرى.. وتنطق الشريرة بالكذب لكي تحمي وجودها

هز *مروان* رأسه مرة أخرى إعجاباً بما قاله *ثروت* ثم قال له:

- فهمت الآن مرادك.. ولكني أشتمُّ في كلامك هذا أنك تميل إلى الاعتقاد أن *عمر* قد قتل الفتاة بالفعل.؟ فلماذا لم ترجح الاحتمالات الأخرى؛ كأن تكون *زهرة* قد انتحرت مثلاً؛ أو قتلت على يد أحد من عائلتها؛ أو تكون لم تمت حتى وما زالت حية ترزق.؟

ابتسم *ثروت* وقد بدأ يشعر بالإرهاق الشديد وقال له بصوت منهك:

- بداية لك أن تعلم أنني لم أرجح أي احتمال من الاحتمالات طالما لم تتوافر لدي معلومة موثوق فيها؛ أما من ناحية موت *زهرة* فتلك حقيقة لا خلاف عليها..

لقد ماتت *زهرة* في نفس تلك الليلة التي ذهب فيها *عمر* خلفها لكي يسترد منها هذا الإقرار..

ولقد كان شاهداً على موتها – سواء كان هو من قتلها أو أنها انتحرت بكامل إرادتها أو حتى أنه دفعها إلى الانتحار– وإلا لما حدث كل ما حدث له..

وأعتقد أنك تتفق معي أن إغواءه لها وإقامة علاقة معها وأسفرت تلك العلاقة عن جنين نما في رحمها؛ ما كان ليؤدي به إلى تلك الحالة التي وصل إليها؛ خاصة وأنه كان لا يزال متأرجحاً ما بين الخير والشر بداخله..

وحتى لو كانت ماتت بطريقة أو بأخرى؛ ثم نما إلى علمه خبر موتها ولم يشهده بعينه؛ فما كان ليتأثر كثيراً بذلك لدرجة أن يصاب بفقدان ذاكرة جزئي ليسقط ذلك من ذاكرته؛ بل ربما شعر بالارتياح وقتها أن الأزمة قد انتهت دون أن يصيبه شيء من رذاذ نتائجها السيئة..

ازدرد *ثروت* بعض الماء ثم أكمل:

- **أما ما أرجحه أنا فهو يدور في نطاق احتمالين لا ثالث لهما..**

الاحتمال الأول أن يكون قتلها بالفعل ثم ألقى بجثتها في البئر.! أو أنه ألقاها فيه وهي لا تزال على قيد الحياة..

أما الاحتمال الآخر فهو أن يكون قد لحق بها عند تلك البئر وحاول استرداد هذا الإقرار منها أو أنه استرده بالفعل بطريقة أو بأخرى مما سبب لها شعوراً مفزعاً باليأس والإحباط بعدما رأته وهو يلقي بوعوده لها وراء ظهره؛ وأنه تخلى عنها بالفعل وتركها وحدها تلاقي مصيرها الأسود؛ فما كان منها إلا أن ألقت بنفسها في البئر أمامه حتى غرقت وماتت؛ وبهذا أيضاً يكون هو أمام نفسه مسؤولاً مسؤولية مباشرة عن موتها؛ هذا بخلاف أنه ربما لم يحاول إنقاذها من الغرق بأي طريقة كانت أو أنه لم يتمكن من ذلك لشيء خارج عن إرادته؛ ولكن في النهاية فإن ضميره القابع في منطقة الخير بداخله حمله مسؤولية موتها..

فكر *مروان* فيما قاله *ثروت* ولكنه عاد ليجادله قائلاً:

- **ولكن كل هذا يظل مجرد احتمالات لا دليل مادياً أو حتى قولياً عليها؛ ثم لماذا البئر موجودة دائماً في تحليلك لما حدث.؟**

فربما يكون قد قتلها أو هي انتحرت بطريقة أخرى غير السقوط في البئر.؟

أجابه على الفور قائلاً:

- **أنا لست ضابط شرطة ولست قاضياً أبحث عن أدلة مادية لإدانة مجرم ما ارتكب جريمته دون أن يعاقب عليها.. وإنما أنا أحلل ما أراه أمامي من وقائع استناداً إلى ما أعلمه عن النفس البشرية..**

أما لماذا البئر دائماً.؟ فهذا لأن البئر كانت موجودة دائماً..

سواء كان في ذلك الكابوس المتكرر؛ أو عندما توهم حدوث تلك المحاكمة التي عقدت له في المقهى وحكم عليه بالموت بإلقائه بجوار جسم جريمته؛ كما ورد في روايته عما حدث ليلتها.. فلماذا كانت البئر موجودة دائماً في عقله الباطن.؟

هذا لأنه كان هو محور تلك الجريمة.؟

ثم إنني قد تأكدت بنفسي من وجود هذا البئر وفى نفس المكان الذي وصفه *عمر*.. فلقد سافرت إلى تلك القرية

التي ذكرها.. وسرت في نفس الطريق الذي سار فيه.. وجلست داخل نفس المقهى الذي وقعت له فيه تلك الأحداث ليلة المحاكمة المزعومة.. واستطعت ببعض التحريات أن أتأكد أنه كانت هناك بئرٌ بالفعل؛ وإن كانت قد رُدمت منذ وقت ليس ببعيدٍ بعدما تكررت حوادث السقوط فيه سواء للبشر أو الماشية..

صمت الاثنان بينما ظل *مروان* ينظر إلى الدكتور *عز الدين ثروت* باندهاش لهذا التحليل المنطقي المتسلسل الذي فصله بدقة ولكنه هرش رأسه في حيرة وقال:

- **ربما كان كل ما قلته أقرب ما يكون إلى تفسير ما حدث ولم يعترف به *عمر*؛ ولكن هناك عدة نقاط غامضة لم تقدم لي تفسيراً لها.. على سبيل المثال**

هل استرد الإقرار منها.؟ أم أنه غرق معها.؟
وإن كان قد استرده.! فأين ظل مختفياً لعقدين من الزمان أو أكثر دون أن يظهر إلا في تلك الليلة التي قابل فيها الفتاة وأعطته له.؟

ومن تكون تلك الفتاة التي قابلها في الطريق ثم في المقهى؛ إن لم تكن هي *زهرة* بنفسها.؟
هل يكون كل هذا مجرد وهم آخر توهمه *عمر* عندما تعرض للسرقة في هذا المقهى وتوهم أنهم ألقوا به إلى غيابة البئر.؟
ولكن كيف يكون وهماً، هناك فتاة اختفت بالفعل؛ وهناك مظروف ظل مختفياً لأكثر من عشرين عاماً ثم ظهر فجأة في ظروف عجيبة.؟

كان الدكتور *مروان الديب* يلقي استفساراته وهو في قمة الاندهاش بينما ظل *ثروت* ينظر إليه وقد ارتسمت فوق وجهه ابتسامة عريضة ثم أجابه ضاحكاً:

- **ومن الذي خط تلك الرسوم العجيبة داخل كهوف تسيلي بالقرب من الجزائر منذ عشرين ألف سنة على حسب تقدير العلماء المختصين.؟[10]**

---

[10] **- كهوف تسيلي هي كهوف غريبة الشكل تقع على الحدود الجزائرية الليبية؛ وقد عثروا بداخلها على رسومات تظهر مجموعة من البشر يرتدون ملابس رواد الفضاء، وملابس أخرى شفافة غير مألوفة، إضافة إلى لوحات لسفن الفضاء، وطائرات غريبة الشكل، وأناس يسبحون وسط هذه الطائرات داخل مدينة ضخمة متطورة؛ وقدر جميع الخبراء عمر تلك الرسوم والنقوش بأكثر من عشرين ألف سنة.**

وما السر وراء اختفاء الطائرات والسفن عند مرورها بالقرب من مثلث برمودا المرعب.؟ ماذا تعرف عن قارة أتلانتا الغارقة.؟

نظر إليه *مروان* وهو في غاية الدهشة فنهض *ثروت* من مكانه وهو يستعد للانصراف وقال له باسماً:

- **لا تندهش يا صديقي.. فأنا أعني أن هناك العشرات والعشرات من الظواهر الخفية التي لم يستطع أحد أن يجد لها تفسيراً حتى الآن؛ فيمكنك أن تضيف تساؤلاتك تلك إلى قائمة تلك الظواهر العجيبة.. وسأزيدك من الألغاز في حالة *عمر* لغزاً آخر..**

اقترب منه ومال عليه وهو يقول له بصوت هامس:

- **لماذا لم تسأل نفسك أيضاً من الذي أنقذ *عمر* من الغرق في النيل وأخرجه من سيارته.؟ والجدير بالذكر هنا أن تقرير فحص السيارة ذكر أن الباب الذي بجوار السائق قد انتزع انتزاعاً وانخلع مزلاجه ولم يفتح؛ فلقد كان الباب مغلقاً بمزلاج التأمين وكأن هناك آلة جبارة قد انتزعته من مكانه..**

وأيضاً كان حزام الأمان ممزقاً وكأن هناك يداً فولاذية مزقت الحزام المصنوع من مادة قوية.. مع الوضع في الاعتبار أنه كان فاقداً للوعي تماماً..

وحتى لو كان مستيقظاً؛ وكان بطلاً من أبطال كمال الأجسام ما كان ليستطيع فعل ذلك بيديه العاريتين..

ألقى الدكتور *عز الدين ثروت* ذلك اللغز في حجره ثم حياه منصرفاً تاركاً إياه يضرب أخماساً في أسداسٍ وهو يقول لنفسه بصوت عالٍ:

- **فاقد للوعي تماماً.؟**

سيارة مغلقة بمزلاج التأمين ينتزع بابها انتزاعاً.؟

حزام أمان متين يمزق تمزيقاً.؟

فمن إذن الذي أنقذ *عمر الشوباني* من الغرق...؟!

–

تمت بحمد الله

تمت بحمد الله تعالى

النسخة الأولى مايو 2010

النسخة الثانية والتعديل

نوفمبر 2017

--

أبو مروان المصري

رقم الإيداع